

الصورة القرآنية لانهايارالموجودات

أ.د. أحمد الصفار
استاذ جامعي كيميائي
ومهتم بالدراسات القرآنية

فحوى البحث

تناول البحث مفهومين قد يكونان جديدين، وتمت مناقشتهما من خلال الآيات البينات. وهما أن الحياة قائمة لكل شيء في الموجود فلا موت لها بالمعنى المتعارف عليه إلا قبل القيامة، وأحد أدلة ذلك هو التسبيح المستمر ﴿تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. فإن كل ما في الموجود له حياة. وإن ماتت الأحياء بسلب الروح عنها وتبلى أجسادها، فسلب الروح هو لإيقاف الفعاليات الحيوية فقط، فأجزاؤها تستمر فيها الحركة وستبقى تسبح.

والحياة هنا تعرف بالحركة وليس بصفات التنفس، والتكاثر وغيرها من الفعاليات الحيوية المتصف بها ما متعارف عليه بالكائن الحي. والتي تنتهي بسلب الروح منها. وهي التي حُدد فناؤها بالآية الشريفة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. فالموت الكلي وهو (الهلاك) لا يتم بسلب الروح منها بل هو بسكون الحركة الدائبة في الجوهر. وهذا ما يحاول الباحث عرضه وإثباته.

الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (النباتات)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون وقدر له الهلاك، ومثل جلّ وعلا ذلك الهلاك بصورة نبات يخضر لأيام قليلة ما يلبث أن يصفرّ ويذبل فيحصد، فيستأصل الموجود ولا يبقى له أثر بعد عين، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتْنَاهَا أَمَرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس: ٢٤]. وسيكون زوالها سريعا وفناؤها كالهشيم تذروه الرياح، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنِدًا﴾ [سورة

نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشياً متكسراً متلاشياً تذروه الرياح" (١)، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلٌ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَهُيجُ فَتَرْدُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ [سورة الحديد: ٢٠]. وبالمحصلة لا يبقى منها شيء وينفد وينتهي كل ما فيها فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: ٩٦].

لقد تميزت الحياة الدنيا بالحركة والتغير والتبدل. وتوقفها عن الحركة فإنه سينتهي كل شيء الى فناء وزوال وعدم بقاء. خذ مثلاً توقف حركة الأرض حول الشمس عندئذ يتعرض نصفها المقابل الى الشمس لنهار دائم والنصف الآخر لليل دائم وما سيرافق هذا التوقف. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٩، ص ١٦٤.

عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَكْرَمًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ
إِلَهُ عِزُّ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ
أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴿[سورة القصص: ٧١-٧٢]

وسنوضح في الفصول التالية على
الصورة اللحظية التي رسمها القرآن
الكريم لانهاء الوجود. ولكن قبل ذلك
علينا أن نمر ببعض المقدمات.

الفصل ١:

الحركة في الوجود:

يترتب على الزمن كل من الحركة
والفعل ورد الفعل وما يتصل بهما. ويحدد
عامل الزمن في وجودنا على الأرض من
ارتباطها بالشمس كدالة على ذلك. ونعلم
أن من بين الحركات حركة الأرض حول
الشمس وحول نفسها، وبسرعة ثابتة^(٢)

(٢) سرعة الأرض عند خط الاستواء ٤٦٤ متر
بالثانية. فمحيط كوكب الأرض من خط
الاستواء = ٤٠٠٧٠ كيلومترا (٢٤٨٩٨
ميل)، وطول اليوم يبلغ ٢٤ ساعة.
بالتالي بقسمة المحيط على طول اليوم، يمكننا
أن نستنتج انه تبلغ سرعة الأرض عند خط
الاستواء ما يقرب حوالي ١٦٧٠ كم/
ساعة (١٠٣٧ ميل) وهذه ليست نفس
السرعة عند خطوط العرض الأخرى.

وكذلك حركة الشمس الدائبة التي
تجري وتنتقل من مكان لآخر فتتحرك
متسارعة نحو مستقرها^(٣) وعندئذ
يتوقف سيرها في زمان ومكان محددين،
قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ
لَهَا﴾ [سورة يس: ٣٨]. وأصبح لكل
من الشمس والقمر مسارا وفلكا خاصا
بهما ويتحدد من خلالهما وضع كل واحد
نسبة للآخر. فالليل هو الظل المخروطي
الملازم لوجه الأرض المخالف للشمس،
والنهار وهو خلاف الليل يعني الوجه
المقابل للشمس، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٣]، وهذه
الحركة تؤثر في نظام الليل والنهار حيث
يزيد هذا وينقص ذاك وبالعكس بحسب
الفصول المختلفة وبقاع الأرض المتفرقة،
وما ينقص من الليل يدخل في النهار وما
ينقص من النهار يدخل في الليل، قال
تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

(٣) إن الشمس تجري نحو نجم النسر الواقع
Vega، في مجرة درب التبانة.

الصورة القرآنية لانهايار الموجودات..... (المصباح)

وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢٩﴾ [سورة لقمان: ٢٩].

الفصل ٢:

تراتبية الزمن للعوالم الوجودية

الزمن مرهون فقط - كما هو معلوم - بالعوالم السفلى وهي الدنيا أو ما يسمى بالناسوت^(٤) وينعدم بالمراتب العليا المعرف بواجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ويسمى باللاهوت^(٥).

«وأن ذات الله وهو الوجود غير المحدود والمستقل بقطع النظر عن الصفات ويسمى (غيب الغيوب) ومع أخذ صفاته الكمالية - التي لا تنفصل عن ذاته بل هي عين ذاته - يسمى باللاهوت كما أسلفنا. والوجود المتأخر عن ذات الله وصفاته وهو عالم العقل ويسمى بالجبروت^(٦)، وما

(٤) الناسوت: Human nature، وتطلق أيضا على عالم الشهادة أي الدنيا. موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي، (ت: بعد ١١٥٨ هـ)، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٩٩٦.

(٥) اللاهوت: في الأصل لا هو إلا هو، وحرف التاء زائدة عن قواعد العربية.

(٦) الجبروت: The all - mighty، وهو عدا الملكوت. عند

تأخر عنه من عالم النفوس الكلية يسمى بالملكوت^(٧). وما هو أدنى منه مرتبة من عالم الطبيعة والمادة سماوياً كان أو أرضياً يسمى بالناسوت ولعالم الناسوت بشكل عام مرتبتان مرتبة القوة والاستعداد، ومرتبة الفعلية: والمراد من الفعلية صور العناصر والمركبات، من قبيل المعادن والنباتات والحيوانات والإنسان، التي يظهر كل واحد منها في حد خاص وله أثر مخصوص، والمراد من القوة: الهيولي^(٨)

الصوفية عبارة عن الذات القديمة وهي صيغة المبالغة بمعنى الجبر. والجبر إما بمعنى الإجبار من قولهم جبرته على الأمر جبراً أو أجبرته أكرهته عليه، وتدعى مرتبة الصفات الجبروت. موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي، (ت: بعد ١١٥٨ هـ)، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٩٩٦.

(٧) الملكوت: Kingdom spiritual world، بفتحيتين صيغة المبالغة بمعنى الملك والملك هو التصرف الصحيح بالاستعلاء، فالعبد له فيه اختيار ما دام في هذا العالم، وهي مرتبة الأسماء.

(٨) الهولي: لفظ يوناني، بمعنى الأصل والمادة. وفي الاصطلاح: هي جواهر في الجسم قابلة لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال، والانفصال، محل للصورتين: الجسمية،

والمادة الأولى مما ليس له فعلية والذي يعد أساساً لكل الصور، ويقبل الصور المختلفة بفعل الحركة والتغير في المسيرات المتنوعة»^(٩).

فالحركة إنما هي في عالم الشهادة، وهي حركة انتقالية. وقد فسر الفيلسوف ابن سينا علّة الحركة الى ثلاث فقال: «فأسبابها ثلاثة: قسر، وطبيعة، وإرادة، والطبيعة نفسها ليست تكون علّة حركة مالم يقترن بها أمر بالفعل. أما الحركة الإرادية فإن عللها أمور إرادية كلية ثابتة، ولا يجوز أن يلزم عن علّة ثابتة أمر غير ثابت. أما الحركة القسرية: فإن كان المحرك يلازمها فعلتها حركة المحرك وأفعاله، وعلّة عليتها آخر الأمر طبيعة وإرادة؛ فإن كلّ قسر ينتهي الى طبيعة أو إرادة؛ فإن القوة

والنوعية، فالخشب هيولي الكرسي؛ والفضة هيولي الخاتم. كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٩٨٣.

(٩) من المبدأ الى المعاد في حوار بين طالين، حسين علي منتظري، مؤسسه تحقيقات ونشر معارف اهل البيت (ع)، إيران، ص ٧٠.

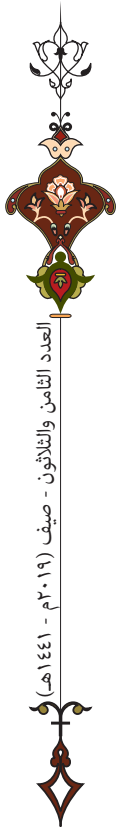
القسرية حالها في إيجاب الحركة بتجدد الأيون (جمع أين) عليها حال الطبيعة الى أن تبطل، وإن الحركة أمر يحدث دائماً، وكل حادث فله علّة محدثة، فكل حركة لها علّة محدثة، وهذا هو المحرك»^(١٠).

الفصل ٣: معنى الحياة:

لنبداً بتعريف الحياة من تعريف نقيضها وهو الموت الذي يعرف كما يلي: والموت لغويًا كما جاء في لسان العرب^(١١) «يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة، فمنها: ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات، كقوله تعالى: ﴿فَيُخَيِّئُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [سورة الروم: ٢٤]، ومنها: زوال القوة الحسية، كقوله تعالى -حاكياً قول مريم (عليها السلام) ﴿يَلَيِّنِي مِّنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [سورة مريم: ٢٣]، ومنها: زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، كقوله

(١٠) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ٢٠ - ٢٢، وفصل ٢٥.

(١١) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، ١٤١٤هـ، ج ١٤ مادة موت.



الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... المصباح

تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [سورة الانعام: ١٢٢]، و﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ﴾ [سورة النمل: ٨٠]، ومنها: الحزن والخوف المكدر للحياة، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [سورة إبراهيم: ١٧]. وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة، كالفقر والذل، والسؤال والهزم، والمعصية.

والموت أيضا "كل ما سكن فقد مات حتى يقال مات الحر ومات البرد" (١٢)، وإن الموت جاء في القرآن الكريم للنفس فقط ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (١٣) [سورة آل عمران: ١٨٥]، وقد يكون تعبيرا لانعدام الحياة للنبات والحيوان معبرا عنه بجفاف الأرض وخرابها فتصبح ميتة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [سورة البقرة: ١٦٤]، وكذلك في الآية الشريفة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

(١٢) المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى (ت ٤٥٨هـ)، ١٩٩٦ ج ٢، ص ٨.
(١٣) [سورة الأنبياء: ٣٥]، [سورة العنكبوت: ٥٧].

عُرُوشِهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٥٩]. أما إذا قلنا نقيض الحياة هو الفناء: فالفناء: "نقيض البقاء" (١٤)، كما في الآية الشريفة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦]، لاحظ معي أن الآية تشير الى ﴿مَنْ﴾ فهي تتكلم عن فناء العقلاء معبرا عنهم بـ (مَنْ) وليس (ما)، وذلك لأن (مَنْ) هي للعقلاء. وذلك لأن "المنتفع بالتخويف هو العاقل فخسه تعالى بالذكر، ومع ذلك فإن كل ما على وجه الأرض مع الأرض فان" (١٥)، و" (مَنْ) هو للتغليب، أو من الثقلين - الجن والإنس - ﴿فَإِنَّ

(١٤) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية.

(١٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث - القاهرة. ج ١٥، ص ٧٧.

(١٦) تفسير البضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله

ثبت ذلك وكانت الجواهر لا تفتنى إلا بفناء
يضادها على الوجود، فاذا وجد الفناء
انتفت الجواهر كلها، لأنها اختصاص له
بجوهر دون جوهر، فالآية دالة على عدم
جميع الاجسام^(١٧). وأن فناء الدنيا كلها
إنما هو بفناء أجزائها.

«فلاستعمال في الجميع بأصل واحد.
وقد استعمل القرآن لفظ الموت بهذا
الملاك، مثلاً يقول: ﴿وَأَيُّهُمْ لَمْ يَأْتِ
الْمَيِّتَةَ﴾ [سورة يس: ٣٣]. ويقول في
الأصنام: ﴿أَمْ مَوْتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [سورة
النحل: ٢١]. ويطلقه على المراحل المتقدمة
من خلق الإنسان، فيقول: ﴿وَكُنْتُمْ
أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [سورة البقرة:
٢٨]. فترى في الجميع نوع ذهاب وزوال،
الأرض، أو للقدرة على الحركة والتكلم،
كما في الأصنام، وغير ذلك^(١٨).

ويفهم من كل ذلك أن «الحياة
والموت المشهودين في هذه الموجودات
الحية الشاعرة المريدة، فإن هذه الحياة
المجهولة لكنه لا يستطيع أن يوجد لها
إلا من هو واجد لها، فلا يمكن أن يعلل
بالطبيعة الجامدة الفاقدة لها، ولا بشيء
من هذه الموجودات الحية، فإن حياتها هي
وجودها، وموتها عدمها، والشيء لا يقوى
لا على إيجاد نفسه ولا على إعدام نفسه^(١٩)
وفي هذا المجال قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ أَلَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾
[سورة البقرة: ٢٥٨]. نعم؛ وبكل تأكيد
فإن الله سبحانه هو المبدع وهو المبدئ وهو
الذي يسلب الحياة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ
يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [سورة البروج: ١٣]^(٢٠).
وأما الحياة فقد عرّفت قرآنياً على أنها
كما يلي: «الأول: للقوة النامية الموجودة

بن عمر بن محمد الشيرازي البضاوي
(ت ٦٨٥هـ)، دار إحياء التراث العربي -
بيروت، ١٤١٨ هـ. ج ٥، ص ٧٧.
(١٧) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت
٤٦٠ هـ).
(١٨) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة
والعقل، جعفر السبحاني، دار إحياء التراث
العربي، بيروت، ج ٤، ص ٢٢١.

(١٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد
محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)،
ج ٢، ص ٣٥١.
(٢٠) [سورة يونس: ٤]، [سورة يونس: ٣٤]،
[سورة النمل: ٦٤]، [سورة العنكبوت:
١٩]، [سورة الروم: ١١]، [سورة الروم:
٢٧].

الصورة القرآنية لانتهيار الموجودات..... (المصباح)

[سورة الفجر: ٢٤]، والسادسة: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حي، فمعناه: لا يصح عليه الموت^(٢١)، ليس ذلك إلا الله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥] [سورة آل عمران: ٢].

«لكنّها في نظر علماء الطبيعة تلازم الآثار التالية في الموصوف بها:

الجذب والدفع، والنموّ والرشد، التوالد والتكاثر، والحركة وردّة الفعل. وهذا التعريف للحياة إنما يشير إلى آثار الحياة لا إلى بيان حقيقتها، وهي آثار مشتركة بين أفراد الحيّ ومع ذلك كلّه نرى البعد الشاسع بين الحياة النباتيّة والحياة البشريّة. فالنبات الحيّ يشتمل على الخصائص الأربع المذكورة، ولكن الحياة في الحيوان تزيد عليها بالحسّ والشعور وهذا الكمال الزائد المتمثل في الحسّ والشعور لا يجعل الحيوان مصداقاً مغايراً للحياة، بل يجعله مصداقاً أكمل لها. كما أنّ هناك حياة

في النبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حي، قال عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ حَيٌّ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [سورة الحديد: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ [سورة ق: ١١]، وقوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠]. الثانية: للقوة الحساسة، وبه سمي الحيوان حيواناً، قال عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [سورة فاطر: ٢٢]، الثالثة: للقوة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿أَوْمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢]، والرابعة: عبارة عن ارتفاع الغم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩] أي: هم متلذذون، لما روي في الأخبار الكثيرة في أرواح الشهداء. والخامسة: الحياة الأخروية الأبدية، وذلك يتوصل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيِّنَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾

(٢١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم - الدار الشامية، ٢٠٠٩.

أعلى وأشرف وهي أن يمتلك الكائن الحي مضافاً إلى الخصائص الخمس، خصيصة الإدراك العلمي والعقلي والمنطقي»^(٢٢).

وهنا أقف عاجزاً حيال هذه التعريفات للحياة لأنها لا تشمل على من هو دائم في حركته ينتقل في حركته ويغير موضعه كالنجوم والكواكب وغيرها. فهذه الأجرام تهتز وتدور وتنتقل، وتتوالد وتكبر وتهرم وتموت أيضاً. فكلها في حركة مستمرة مادامت السماوات والأرض تماماً كالإلكترون فماذا نطلق عليها؟

دعنا نأخذ الشواهد القرآنية لتوصيف أفعال الأشياء التي لا تصنف ضمن - الكائنات الحية - كما دأب الإنسان على تصنيفها. بينما هي كلها تشير إلى نوع من الإفاضة التي توحى بها أسميه (بالحياة): المعرفة بالحركة الذاتية.

أفعال الأشياء دليل حياتها:

١. تسبيح الأشياء:

(٢٢) حسن محمد مكي العاملي، الصفات الثبوتية الذاتية. [https:// research. rafed. net](https://research.rafed.net)

لقد وصف الطباطبائي تسبيح الأشياء وهذا التسبيح مرتبط بالدلالة الذاتية العقلية قائلاً «أن الأشياء قاطبة مسبحة بحمده بوجوداتها القائمة به تعالى المعتمدة عليه، وهذا تسبيح ذاتي منهم ودلالته دلالة ذاتية عقلية غير مرتبطة بالدلالات اللفظية»^(٢٣)، مفسراً الآية الشريفة ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الرعد: ١٣]، ويقول: "وكما أن إظهار هذه الأشياء لنفسها في الوجود إظهار لحاجتها ونقصها وكشف عن تنزه ربها عن الحاجة والنقص، وهو تسبيحها كذلك إبرازها لنفسها إبرازاً لما عندها من جميل فعل ربها الذي وراءه جميل صفاته تعالى فهو حمدها فليس الحمد إلا الثناء على الجميل الاختياري فهي تحمد ربها كما تسبحه"^(٢٤) وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ

(٢٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ).
(٢٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٣، ص ١١١.

الصورة القرآنية لانهيار الموجودات..... (المصباح)

لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [سورة الإسراء: ٤٤]. وإذا كان التسبيح هو تنزيه الشيء ونسبته إلى الطهارة والنزاهة من العيوب والنقائص، فهنا جاء التعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار في الآية الشريفة **﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** [سورة الجمعة: ١] ^(٢٥). فالتنزيه مستمر منذ خلقت السماوات والأرض الى يوم زوالها. فبأي إطار نضع استمرارية التنزيه كما هي استمرارية حركتها؟

٢. معرفة الأشياء:

بالإضافة للصفة العقلية للأشياء فإن صدر المتألهين قد أعطى المعرفة لهذه الموجودات فقال: «وَأَنَّ كُلَّ موجود على حسب وجوده عارف بربه المتَّصف بصفات الجمال، المنزه عن نقائص الإمكان والزوال، ومن عرف الله فلا محالة يسبحه ويقدِّسه وينزهه بلسان الحال أو المقال أو الفعل، فكلَّ موجود يسبح بحمده إلّا من غلب عليه الوهم المغيّر لخلق الله» ^(٢٦).

(٢٥) [سورة التغابن: ١].

(٢٦) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيمان، قم.

فبأي إطار نضع معرفتها بالله كما هي استمرارية تنزيها وحركتها؟

٣. سجود الأشياء:

وهذه الأشياء تسجد لله خضوعاً وتذللاً ومنها الدواب وهي ليست فقط التي تدبّ على الأرض بل أن «في ذلك من التلويح إلى أن ما نسب إليهم في كلامه تعالى من النزول والصعود والذهاب والمجيء مما ظاهره النقلة والحركة المكانية ليس من نوع ما للدواب من الدبيب والانتقال المكاني ما لا يخفى» ^(٢٧)، التي ورد ذكرها في قوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾** [سورة النحل: ٤٩]. فإن جميع ما في العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات والأرض تسجد لله سبحانه وتعالى سجوداً ذاتياً، قال تعالى: **﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [سورة الحشر: ٢٤]. فبأي إطار نضع استمرارية سجودها الذاتي كما هي استمرارية تنزيها

(٢٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٤، ص ٢٦٦.

ومعرفتها بالله وحركتها؟.

٤. خشوع الأشياء:

بالإضافة لما مر أعلاه فإنها تخشع. والخشوع هو التذلل والخضوع، فيقول الله سبحانه وتعالى وإن كان الكلام مسوقا سوق المثل مبني على التخيل على إمكانية خشوع الجبل فيما أنه لو جعل في الجبل عقل ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع، ولأنقاد لمواعظه، وتشقق من خشية الله، «حذراً من عقابه، وخوفاً من ألا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله»^(٢٨)، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر: ٢١]. وخشوع الأرض أيضا ﴿وَمِنْ عَائِنِهِ أَنَّكَ تَرَىٰ الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [سورة فصلت: ٣٩]. فبأي إطار نضع استمرارية خشوعها كما هي استمرارية سجودها الذاتي وتنزيها معرفتها بالله وحركتها؟.

٥. توحيد الأشياء لله:

إن السماوات والأرض وغيرهما

من أشياء توحده تعالى وتسبح بحمده، وقد قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الحشر ٢٤]، و "إن السماوات والأرض وغيرهما ناطقة بالتوحيد فعلاً متلبسة به. فما منها إلا مؤمن مطيع. بل وهي تأبى أن تخون الأمانة. أمانة ارجاع الولاية الإلهية لعدم استعدادها، وإشفاقها منها لعدم اشتغالها على صلاحية التلبس وتجايفها عن قبولها فأبين حملها"^(٢٩). قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [سورة الأحزاب ٧٢]. فبأي إطار نضع استمرارية توحيدها لله كما هي استمرارية خشوعها وسجودها الذاتي وتنزيها معرفتها بالله وحركتها؟.

٦. نطق وشهادة الأشياء:

وتستوجب الشهادة القدرة على النطق أو التكلم أو أي أسلوب آخر لإظهار المستور. هذا من جهة وجهة

(٢٨) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤ هـ.

(٢٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٦، ص ٣٥٠.

الصورة القرآنية لانهيار الموجودات..... (المصباح)

وتتجلى حقيقة إدراك الأشياء وعلمها بالله أنه العالم المطلع عالم الغيب والشهادة وأنه لا تغيب عليه غائبة، فيقول عن نفسه سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُيُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٣]، ولذلك فإنها لا تستر على ما تعلم فتنطق «بمعناه الحقيقي» (٣٣)، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة فصلت: ٢١]، «فأوجب نطقها وكشف عن العلم المدخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجأة إلى التكلم والنطق، ولا يضر ذلك نفوذ شهادتها وتمام الحجة بذلك فإنها إنما أُلجئت إلى الكشف عما في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذباً وزوراً حتى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجة» (٣٤). فالله سبحانه يتحدث عن أن الأرض ستدلي بشهادتها أيضاً ﴿يَوْمَئِذٍ

أخرى القدرة على الإفصاح عن حقيقة وعلم وكلاهما لا يحتاجان إلى الكذب والتزوير. ولقد تكلم القرآن عن شهادة الأشياء بآيات عديدة (٣٠)، كما يقول سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النور: ٢٤]. ولأن الله هو خالقها فهو القادر على أن يجعلها تنطق بالشهادة وأنه «لا دليل على فقدان الأشياء غير ما استثنيناه للشعور والإرادة سوى أنا في حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الاطلاع على حقيقة حالها» (٣١). ويذهب الرازي كذلك في هذا الرأي فيقول: أن «البنية ليست شرطاً للحياة ولا للعلم ولا للقدرة، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء» (٣٢).

(٣٠) [سورة النور: ٢٤]، [سورة فصلت: ٢٠]، [سورة فصلت: ٢١-٢١].

(٣١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٧، ص ٣٨١.

(٣٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤ هـ)، دار الحديث - القاهرة، ج ٢٧، سورة فصلت، ص ١١٧.

(٣٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٧، ص ٣٨١.

(٣٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٧، ص ٣٨٠.

تَحَدَّثْ أَخْبَارَهَا ﴿سورة الزلزلة: ٤﴾. قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تَحَدَّثْ أَخْبَارَهَا﴾ قال: ((أتدرون ما أخبّارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: فإن أخبّارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها)) (٣٥). هذا يعني أن «الأرض شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرا وشرها متحملة لها يؤذن لها يوم القيامة بالوحي أن تحدث أخبارها وتشهد بما تحملت، وأن الحياة والشعور ساريان في الأشياء وإن كنا في غفلة من ذلك» (٣٦). فبأي إطار نضع إدراكها وشهادتها وشعورها كما هي استمرارية توحيدها لله سبحانه وخشوعها وسجودها الذاتي وتنزيهها ومعرفتها بالله وحركتها؟.

(٣٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبُد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت ٣٥٤هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨. ج ١٦، ص ٣٦٠.

(٣٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ٢٠، ص ٣٤٢.

على أي حال فإن تنزيه الموجودات لله ودوام حركتها ومعرفتها بكمال خالقها وسجودها لله سبحانه وتعالى ذلك لأنها عالمة وعارفة، وشاعرة وحية ومريدة أيضا. كل ذلك لما أفاض الله عليها من عناية، «لأن أنفس الأجرام السماوية عالمة بما تفعل علما كليّا أو جزئيا، وعالمة بما يلزم أفاعيلها. وأنه سبحانه لما كان علم الحق الأول بنظام الخير في الوجود علما لا نقص فيه وكان ذلك سببا لوجود ما هو علم به حصل الكلّ في غاية الإتقان، لا يمكن أن يكون الخير فيه إلا على ما هو عليه، ولا شيء مما يمكن أن يكون للكلّ إلا وقد كان له. وهذا الذي يسميه الأوائل عناية» (٣٧). هذه العناية التي سماها ابن سينا هي ذاتها التي عبر عنها القرآن الكريم بالهداية والتي اصطلح عليها عقديا بالهداية التكوينية، فقال سبحانه وتعالى ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى

كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: ٥٠]، وأن "هداية كل شيء إلى مطلوبه، ومطلوبه

(٣٧) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ١٠، فصل ١١، ص ٨٧-٩١.

الصورة القرآنية لانهيار الموجودات..... (المصباح)

هو الغاية التي يرتبط بها وجوده وينتهي إليها المطلوب هو مطلوبه من جهة خلقه الذي أعطاه، ومعنى هدايته له إليها تسييره نحوها كل ذلك بمناسبة البعض للبعض. وإلقائه الرابطة بين كل شيء بما جهز به في وجوده من القوى والآلات وبين آثاره التي تنتهي به إلى غاية وجوده^(٣٨). وقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [سورة الأعلى: ٣]

ويأتي ذلك من تقدير الله وهدايته لكل شيء. و«جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة وحدود معينة في ذواتها وصفاتها وأفعالها لا تتعداها وجهزها بما يناسب ما قدر لها فهداها إلى ما قدر فكل يسلك نحو ما قدر له بهداية ربانية تكوينية»^(٣٩).

وإني أرى أنه لا يوجد مخلوق ممكن الوجود في هذا الكون ساكنا وبدون حركة. إذ أن هذه الحركة أصبح الوجود قائما، وبغيابها يصبح هباء منثورا لا أثر له. وسأقف على هذا التصور على انفراد ان شاء الله.

الفصل ٥: الحركة الجوهرية:

الحركة الجوهرية كما عرفها الفيلسوف صدر المتألهين، هي أنّ كلّ شيء يتحرّك في ذاته كما يتحرّك في الخارج بحركة وضعيّة أو انتقالية فهذه الحركة الذاتية تسمّى بالحركة الجوهرية. فاعتبر أن جميع الحركات ترجع الى الحركة الجوهرية التي

الفصل ٤: الحركة والتكامل:

من المعلوم أن هناك ترابطا بين الحركة

(٣٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٤، ص ١٦٦.

(٣٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ٢٠، ص ٢٦٥.

هي حركة استمداد وجودية من واهب الوجود سبحانه وتعالى والتغيرات الكمية التي تترتب على التغيرات الكيفية أو بالعكس لم تكن لتتم لو لم يكن لها استناد إلى الحركة الجوهرية. وهو ذات المفهوم الذي اعتمدته من عدم وجود (موت) بمعنى ثبات وسكون الحركة في هذا الكون وهذا الموجود - كما أسلفت - قبل الموت الأخير في التمهيد للنشر والقيامة.

إن أول شخص طرح هذه النظرية بشكل تفصيلي استدلاي هو صدر الدين أو صدر المتألهين الشيرازي^(٤٠) حيث

(٤٠) الشيخ صدر الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى القوامي الشيرازي المعروف بملّا صدرا، أو صدر المتألهين (ت ١٠٥٠هـ)، من مؤلفاته: الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة العقلية، والشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، والمبدأ والمعاد، ورسالة المشاعر، والحكمة العرشية، والمظاهر الإلهية في أسرار العلوم الكمالية، ومفاتيح الغيب، وكسر أصنام الجاهلية، ورسالة في حدوث العالم، ورسالة طرح الكونين، ورسالة في اتصاف الماهية بالوجود، ورسالة خلق الأعمال، ورسالة في القضاء والقدر، ورسالة في التشخيص، ورسالة في التصور والتصديق، ورسالة الواردات القلبية في معرفة الربوبية، ورسالة في اتحاد

قال: «إن كل ذرات الكائنات وعالم المادة في حركة دائبة، أو بتعبير آخر: إن مادة الأجسام وجود سيال متغير الذات دائماً، وفي كل لحظة له وجود جديد يختلف عن الوجود السابق له، ولكون هذه التغيرات متصلة مع بعضها فإنها تحسب شيئاً واحداً، وبناء على هذا فإن لنا في كل لحظة وجوداً جديداً، إلا أن هذه الوجودات متصلة ومستمرة ولها صورة واحدة، أو بتعبير آخر: إن المادة لها أربعة أبعاد: طول وعرض وعمق وأما البعد الآخر فهو ما نسميه (الزمان) وهذا الزمان ليس بشيء إلا مقدار الحركة في الجوهر»^(٤١). وبالمناسبة فإن صدر المتألهين بكلامه هذا قد سبق أينشتاين بطرحه بُعد الزمن ويمكن مراجعة ذلك أكثر من مضانه.

وقد ذهب أحدهم في تفسير مرور الجبال كالسحاب في الآية: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي

العاقل والمعقول، التفسير الكبير، متشابه القرآن، وغيرها كثير. (٤١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٥. ج ١٧، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

الصورة القرآنية لانهيار الموجودات..... (المصباح)

أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿ [سورة النمل: ٨٨]،
الى الحركة الجوهرية للجبال فقال: «أن
الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها إلى غاية
وجودها وهي حشرها ورجوعها إلى الله
سبحانه» (٤٢).

وهذا يدفعني الى التفكير عميقا في
جوهر أو ماهية الحركة الجوهرية للمادة
وما حقيقتها؟. وإني أذهب معتقدا أنها
تنطلق تماما من حركة الإلكترون، ابتداء
كمطلق لتكوين الجزيئات والمركبات
والمواد الملموسة والمحسوسة في وجودنا.
فهي الحركة الجوهرية المتوفرة في كل شيء
في الموجود المادي. وهي الحركة القائمة
من بداية الخلق الى انتهائه. ولا أجد
مصطلحا يناسبها ليعمم على الموجودات
كلها عاقلها وغيرها. فإن قلت روحا
فإني سأصطدم بالتصنيفات التي وضعها
الفلاسفة والمشتغلون بالجانب العقائدي
والبيولوجي، وغيرهم. لقد اصطلحوا
على بعض الكائنات الحية ونزعوها من

النباتات والجمادات. ثم أودعوها في
بعضها على مراحل متدرجة وليست
دفعية كما في الإنسان بعدما تجتمع النطفة
بالبويضة مستندين للآية الشريفة ﴿ **ثُمَّ
جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ** ﴿٨﴾
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴿ [سورة
السجدة: ٨ - ٩]. وقالوا إن الحياة هي
ليست الروح فالنبات له حياة وليس روح.
وقال آخر في تشخيص الفرق بين
الروح والحياة «أن الروح من قرائن
الحياة، والحياة عرض. والروح جسم
رقيق من جنس الريح وهو جسم رقيق
حساس» (٤٣).

وأضيف للتمييز بينهما أن هناك
حياتان مستمرة ومستقرة. «فأما المستمرة
فهي الباقية إلى انقضاء الأجل بموت أو
قتل. والحياة المستقرة هي أن تكون الروح
في الجسد ومعها الحركة الاختيارية دون
الاضطرارية. وضابطها أي الحياة المستقرة
أن يكون فيه حركة اختيارية وتعرف

(٤٣) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد
الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهرا
العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار العلم والثقافة
للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٤٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد
محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)،
ج ١٥، ص ٤٠٢.

بانهيار الدم أو بالحركة العنيفة أو بهما^(٤٤). وأيا كان فهناك حركة ونشاط وقد سميت بأسماء مختلفة. فالروح هي المسؤولة عن العمليات الحيوية. وبسلبها تتوقف تلك العمليات الحيوية، ولكن لا يتحقق الموت الكامل، وما يطلق من لفظ الموت إنما هو نقيض الحياة وهما اللفظان المتداولان.

خذ مثلاً عن تمثيل الروح في العمليات الحيوية. فالنشاط الكيميائي الحيوي، الذي يعبر عن حيوية كل خلية في الكائن الحي، فإنه يتم تحت سيطرة الحامض النووي «دي إن إيه DNA»^(٤٥) والذي يتواجد

(٤٤) حاشية الجمل على المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهرى، المعروف بالجمل (ت: ١٢٠٤هـ)، دار الفكر، ج ١٠، ص ٣٤٤.

(٤٥) الذي أن إيه (DNA) هو العماد الأساسي للكائنات الحية ووجود الحياة على الأرض. إذ أنه يمكن أن يكرر نفسه، أي يصنع مثيلاً له. وهو الذي يحتوي على التعليمات الجينية التي تصف التطور البيولوجي للكائنات الحية ومعظم الفيروسات؛ كما أنه يحوي التعليمات الوراثية اللازمة لتكوين أعضاء الجنين سواء في الرحم أو البيضة أو النبات، أي لكل الكائنات الحية. يعتبر وسيلة التخزين الطويل الأجل للمعلومات

داخل نواة الخلية في أي كائن حي علي وجه الأرض، ودعنا نقول إنه يعتبر بذرة الحياة الأولى.

وقد وجد أن -مادة الحياة- في سائر المخلوقات (ما تسمى بالكائنات الحية) تشترك في أنها تتألف من نفس العناصر التي نراها من حولنا في التراب مثل الكربون، والهيدروجين، والأوكسجين، والنيتروجين. ولكن

الوراثية وهي الوظيفة الأساسية لجزيئات (الدي أن إيه)، بالإضافة إلى أنه يمكن من خلال هذه الجزيئات الحصول على المعلومات اللازمة لبناء البروتينات والحامض الريبي النووي (بالإنجليزية: RNA). تسمى قطع الدي أن إيه (DNA) التي تحمل معلومات وراثية يمكن ترجمتها لبروتينات بالمورثات أو الجينات. تتواجد بعض قطع الدي أن إيه لأغراض تركيبية وتنظيمية. ويمكن تصور أن (الدي أن إيه) عبارة عن مخطوطة، أو برمجة سوفتوير، موجودة في نواة خلية. واللغة المكتوبة بها تتكون من أربعة حروف. والجملية المكونة من عدة كلمات منها تعرف بأنها (جين). وكل (جين) يتكون من مئات أو آلاف الحروف. وجميع الوظائف التي تؤديها الخلية فهي تنظم عملها وفقاً لترتيب الشفرة المكتوبة بالحروف الأربعة في هذا المخطط. <https://ar.wikipedia.org>

الصورة القرآنية لانتهيار الموجودات..... (المصباح)

فهداية هذا المركب الكيميائي للقيام بدوره وهو حي (الروح فيه) يختلف تماما فيما لو صنعتته كيميائيا (لا روح فيه) فإنه لن يعمل ولا ينقل المورثات. فهاذا نسمي هذا السر؟ لا بأس لنسميه بالحياة المستمرة التي تنتهي بسلبها وهو الموت بتوقفه وليس بهلاكه وتفتته الى أجزائه. ثم لا يمكن أبدا أن ترتبط العناصر المكونة (للدي أن أي) المكون الأساس للحياة إلا من خلال الروابط أو الأواصر الكيميائية التي هي بدورها مكونة من اشتراك إلكترونات لكل رابطة بين ذرتين وهذان الإلكترونات ناشطان متحركان دائما ما دامت السماوات والأرض. ألا تعد هذه الحركة حياة مستمرة؟.

الفصل ٦: حركة الإلكترون:

علمنا أن لا حركة ذاتية من غير مسبب، وأن الثابت لا يسبب في حركة متحرك، وكما نعلم أن الطاقة محفوظة لا تستحدث بل يمكن نقلها من صورة الى أخرى ولا يمكن عدمها على أن يكون ذلك في نظام معزول وهو ما اصطلح عليه قانون الديناميكا الحرارية

بنسب مختلفة. والغريب أن كلتا الخليتين الحية والميتة تحتويان على نفس العناصر الكيميائية ولكن بموت الخلية يتوقف «الدي أن إيه» عن إعطاء الأوامر لاستمرار العمليات الكيميائية، فالسر في التحريك والأوامر الكيميائية في الاستمرار بالنشاط هو المشترك بين الميت والحي، ﴿وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [سورة آل عمران: ٢٧]. وأرجو الانتباه أن بموت الخلية أي بتوقف الأوامر التي تحدث الفعاليات الحيوية، فإنه سيبقى جزيء "الدي أن إيه" قائما، لكنه لا يعمل. والذي أود الإشارة اليه أن الروح التي كانت في جزيء (الدي أن إيه) تنجز الفعاليات الحيوية وبسلبها تتوقف تلك الفعاليات ولكن الجزيء يبقى كمركب كيميائي بالمفهوم الجديد للحياة غير ميت بل ذو حركة جوهريّة دائمة بوجوده كمركب قائم. إذ لولاها لما استقر كمركب موجود. فهو حي بحركة الكترونات ذراته المختلفة ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [سورة الأنفال: ٤٢].

(Thermodynamics).

وأن الإلكترون يدور حول النواة بسرعة ثابتة وبطاقة محددة حسب نظرية بور^(٤٦). وفيما بعد تطور المفهوم في نظرية الكم ليصبح سحابة إلكترونية. وقال العلماء أنه يشكل سحابة الكترونية بمستوى محدد من الطاقة عن النواة.

والسؤال هنا هو من أين اكتسب الإلكترون طاقة الدوران هذه؟. يأتي جواب الفيزيائيين أنه طالما أن الإلكترون مشحون بشحنة سالبة فإنه يتأثر كثيرا بالمجال الكهربائي، وتعبير أدق فإنه يتعجل بهذا المجال، وبما أن له كتلة صغيرة جدا فإنه سيتعجل بسرعات عالية جدا حتى بوجود مجال كهربائي ضعيف جدا. ويشبهون حركته حول النواة تماما كحركة الكواكب حول الشمس. فبينهما تجاذب

(٤٦) نظرية بور: في عام ١٩١٣ قام العالم الدانماركي نيلز بور بتطوير نظرية دجت أفكار كل من بلانك واينشتاين أكسبته جائزة نوبل عام ١٩٢٢ وتعد نظريته أول نظرية وضعت لتفسير التركيب الإلكتروني لذرة الهيدروجين، وتنص على أن الإلكترون يدور حول النواة في مدارات محددة دون أن يفقد شيئا من طاقته.

وللكوكب قوة طاردة تمنعه من السقوط على الشمس. وأن الكوكب ينجذب نحو الشمس لأن كتلته أقل من كتلتها.

وكذلك فإن كتلة الإلكترون أصغر من كتلة النواة. ولإلكترون كما للأرض دوران حول نفسها ويسمى بالغلز وبمعزم زاوي كمي بقيمة $1/2$ أما باتجاه عقارب الساعة فيكون بقيمة موجبة أو عكس عقارب الساعة فتكون قيمة سالبة. ولكن كيف اكتسب الإلكترون هذا الدوران الذاتي، وكيف اكتسبت الأرض أو الكواكب هذا الدوران الذاتي، أيضا؟. لا أريد أن أخوض في كل الافتراضات العلمية والنظريات. ومهما كانت فالنتيجة أن هناك حركة دورانية للإلكترون حول النواة مكونا سحابة سالبة الشحنة^(٤٧). ولولا هذه الحركة الدورانية والمتلازمة مع الحركة المغزلية الإلكترونية لما قامت الدنيا على شكلها المحسوس والملموس.

(٤٧) لكل إلكترون على حدة في السحابة الإلكترونية حول ذرة مفردة (حرة)، يعبر عنها على شكل دالة رياضية في ميكانيكا الكم. ويعبر عن المدار الذري في ميكانيكا الكم بعدد الكم المداري.

مكونا جزيء الهيدروجين الغاز الذي يملأ الكون وما بين النجوم، وهو المكوّن الرئيس لشمسنا. هذه الرابطة ناتجة من مساهمة كل ذرة بإلكترون واحد. بسبب غزل كل واحد منهما عكس اتجاه الآخر فإنهما يتجاذبان نتيجة لتكوين مجالين مغناطيسيين متعاكسين وبذلك يتكون الجزيء.

ولك أن تتخيل كيف تكوّن جزيء الماء أو جزيء السكر أو الرمل أو مركبات الصخور وهكذا. فلو توقف هذا الإلكترون عن حركته المغزلية فإنه لا يمكن أن يرتبط مع إلكترون آخر وبذلك لا يتكون جزيء. وهذا يعني أنه سوف لا يوجد ماء ولا غازات ولا صخور ولا جبال ولا شمس ولا أي شيء من الذي تراه اليوم وتحسه وتلمسه. بل سيبقى الإلكترون في ذرته وحيدا وهذه الحالة غير موجودة وإذا وجدت فسيكون

وتكوّن الذرات رابطة في حالة أن تكون طاقتها بعد الارتباط أقل من طاقتها قبل الارتباط. حيث تتحرك الإلكترونات في الذرة والجزيئات في مستويات محددة للطاقة.

ومن المعلوم أن الذرة هي أصغر جسم في الكون وأنها لا يمكن تكسيورها أكثر مع الإبقاء على صفة المادة قائمة. فخاتم الذهب مثلا يمكن تكسيه الى قطع صغيرة فأصغر الى أن تنتهي بذرات الذهب التي هي ذرات عنصر الذهب، ولا يمكن ان نرى هذه الذرات بالمجهر. ولكن لو تم تحطيم ذرة الذهب الى مكوناتها من نواة والكروونات بعملية تفاعلات نووية فسوف لن تبقى ذرة ذهب، وسوف لا تحتفظ المكونات الجديدة فيما بعد بصفات عنصر الذهب بل سيكون عنصر آخر ومكونات أخرى.

وأن أبسط مركب في الكون كله هو جزيء غاز الهيدروجين. حيث أنه يتكون من اتحاد ذرتي هيدروجين مع بعض وذلك بتكوين رابطة إلكترونية^(٤٨) بين الذرتين

(٤٨) تقوم الإلكترونات بتكوين مدار جزيئي بين ذرتين ويتناسك الجزيء. تفاعلات الإلكترونات تنشأ نتيجة القوة الكهرومغناطيسية حيث تتأثر الإلكترونات (سالبة الشحنة) مع نواة الذرة (موجبة الشحنة) وكذلك تتأثر فيما بينها، فتنشأ الروابط بين الذرتين، وبعض الخصائص الأخرى مثل المغناطيسية.

عمرها لحظيا. إذ أن كل الكترون له غزل كمي وله قيمة واتجاه وعلى أساس هذا الافتراض تم شرح كل الحقائق الملموسة في حياتنا اليومية وعلى أساسه أيضا يتم تكوين مركبات جديدة من أدوية وأصبغ وصناعات وكل شيء.

والسؤال مرة أخرى لماذا يا ترى تدور الإلكترونات بحركة مغزلية؟

للإجابة عليه نعود الى ما ابتدأنا به الموضوع؛ وقلنا أن لكل حركة محرك. فحركة الإلكترون حول النواة، أو حركة الكواكب حول شمسها، أو حركة الشمس كلها هل هي ذاتية بنفسها وإرادتها؟

لقد ناقش هذا السؤال الفيلسوف ابن سينا وملخص اجابته أنه قال: «لأن الحركة المستديرة دائمة فلا يجوز أن يتم دوام الحركة المستديرة بهذه القوة النفسانية وحدها. لمقدمتين: إحداهما أنه لا يمكن أن يكون لجسم من الأجسام قوة غير متناهية، والثانية أنه لا يمكن أن تكون قوة متناهية يصدر عنها فعل غير متناه، لأن القوة تقدر بالفعل، وبالعكس. وما كان فعله غير

متناه فهو ذو قوة غير متناهية. وقد بان ووضح أن لهذه الحركة محركا غير متناهي القوة وأنه مباين الذات لكل جرم، فإذن هذا المحرك هو غير النفس الذي هو كمال للفلك وقابل للتغير، لأنها قوة جسمانية، وهذا المحرك لا يمكن أن يكون كمالا لجسم ولا قوة في جسم. وتحقيق هذا أن الجرم السماوي يستمد القوة غير المتناهية بما يعقل من الأول ويسنح عليه من نوره وقوته دائما» (٤٩).

ويعود ذلك الإتيان في هذه الحركة الى موجدتها وخالقها، فهذا الاتقان «صادر عن علم الحق الأول بنظام الخير في الوجود علما لا نقص فيه، وكان ذلك العلم سببا لوجود ما هو علم به حصل الكل في غاية الإتيان، لا يكون الخير فيه إلا ما هو عليه، ولا شيء مما يمكن أن يكون للخير إلا وقد كان له» (٥٠). إن الله سبحانه وتعالى قد

(٤٩) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ١١، ص ٣٨-٤٤.

(٥٠) المبدأ والمعاد، أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٩٨، فصل ١١، ص ٨٨.

الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (المصباح)

خلق كل شيء على وجه الإتيان والإحكام والاتساق، وقد قال سبحانه: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل: ٨٨].
فالله هو المحرك، وهو الذي يفيض على الأشياء حركتها ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يس: ٧٩].

فلعدل الله ورحمته أن مدّ الإلكترون بالحركة خيراً منه وكماً لا منه سبحانه وتعالى. والسؤال هنا ماذا لو سُلبت هذه الحركة من واهبها؟

الفصل ٧:

مفهوم الحياة مطلق لكل الأشياء

في الكون:

علمنا مما سبق أن لا حركة ذاتية من غير محرك، وأن المتحركات لها إرادة بالطول مع الإرادة الإلهية، مطيعة ومستجيبة له. كما في قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١].
وقد تبين أيضاً في المعالم الإلهية إثبات العقل والإرادة للأرض بالبرهان المنور بأنوار القرآن^(٥١)، واستبشرت (٥١) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد

فأحيطت ببركة إلهية ومستشرق بنوره ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر: ٦٩]. والله سبحانه قد أمدها بالحياة، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ [سورة فصلت: ٣٩]. والحياة تعني "ومن اكتحلت عين بصيرته بنور الحكمة الحقّة، يعلم أن كل جرم فله حياة ونفس وعقل، إذ ما من جسم إلّا وله صورة طبيعيّة هي مبدأ حركته القريبة، وكلّ جسم من شأنه التفرّق والانقطاع والتكثّر، وعند القطع والتكثير تنعدم ذاته ويزول اتّصاله، وكلّ طبيعة من شأنها الاستحالة والسيلان دائماً. فالنفس الروحانيّة هي علّة اتّصال الأجرام ووحدانيّته، فالوحدة والاتّصال مستفادان في كل جرم من النفس، وكذا البقاء والاستمرار له لسيلان طبيعته واستحالتها. والنفس لا يتم وجودها إلّا بالعقل، لأنّها أيضاً من حيث الفعل والتدبير طبيعة، ومن حيث الذات والحقيقة عقل، فثبت أنّ الأرض ذات حياة نفسانيّة، ولها كلمة فعّالة روحانيّة.

بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيوان، قم.

واستدلّ معلّم أسلاف الحكماء - والكلام
لصدر المتألهين - على أنّ الأرض ذات
حياة بأنّها تنمو وتنبت الجبال - فإنّها نبات
أرضي -، وفي داخل الجبال حيوانات كثيرة
ومعادن، وإنّما تتكوّن هذه منها لأجل
الكلمة ذات النفس فإنّها هي التي تصوّر
في داخل الأرض هذه الصورة. وهذه
الكلمة هي صورة الأرض الفاعلة فيها
هذه الأفاعيل، ولا يمكن أن تكون ميتة
وتفعل هذه الأفاعيل العجيبة العظيمة،
فإن كانت حيّة فإنّها ذات نفس لا محالة.
فإن كانت هذه الأرض الحسيّة حيّة - وهي
صنم - فبالحرّي أن تكون الأرض العقليّة
حيّة - انتهت حكاية كلامه. أنّ الأعيان
الجوهريّة دائمة التوجّه إلى الله تعالى توجّهاً
معنوياً وحركة ذاتيّة، وما من جوهر عينيّ
له صورة وجوديّة إلّا وله هذا السير الحثيث
إلى الحضرة الإلهيّة، وهو أبداً في الانتقال
من صورة إلى صورة، ومن طور إلى طور
حركة رجوعيّة وسيراً استكمالياً^(٥٢) كما

(٥٢) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد
بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت
١٠٥٩ هـ)، دار الإيان، قم.

قال سبحانه: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً
وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ
شَيْءٍ﴾ [سورة النمل: ٨٨].

فأصبح الآن من الضروري أن أعود
إلى الفكرة في أن الحياة مطلقة في الكون
لكل الأشياء وليست مختصة بما اصطلح
عليه بالكائنات الحية فقط، بل أن الحياة
تشمل كل الموجودات. لأن الكون يتكون
من أصغر جزيء وهو جزيء الهيدروجين
إلى أكبر الجزيئات من البوليمرات
وبينهما ما تراه وتحسسه في الحياة الدنيا.
ولا يمكن أن يتكون جزيء من غير
تكوين رابطة الكترونية ناتجة من حركة
الإلكترونات. ولعدل الله ورحمته أن مدّ
الإلكترون بالحركة خيرٌ منه وكمالٌ منه
سبحانه وتعالى. فأني صخرة أو حبة رمل
أو ورقة نبات أو رميم جثة فإنّها مكونة
من مركبات كيميائية. وهذه المركبات
مكونة من ذرات ترتبط فيما بينها بروابط
إلكترونية. ففي هذه المركبات حركة
دائمة مستمرة وهي مستمدة من محرّكها
ومطلقها ومنشئها، وهو الله الخالق القدير
وهاديا لفعلها، فاستجابت لأمره طاعة

الصورة القرآنية لانهار الموجدات..... (المصباح)

بإرادة ذاتية ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: ٤٠]. والسؤال الآن ماذا لو سلبت هذه الحركة؟.

ماذا لو سلبت هذه الحركة من قبل واهبها؟.

إن في الإجابة على هذا التساؤل تتجلى حقيقة يوم القيامة -والله العالم-، والصورة المهولة المرافقة لها. إن سلب الحركة الذاتية للإلكترون فإنه يعني انهيار كل جرم ملموس ومحسوس في الكون، وتصح عليه الآيات التالية:

١. الجبال:

الله سبحانه الذي جعل الجبال مثبتات للأرض من الميد والإمالة يمينا وشمالا كما قال سبحانه في أكثر من آية ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ﴾ (٥٣) [سورة النحل: ١٥]. هذه الجبال المكونة من تراب وصخور وغيرهما، وبدورها (٥٣) وأيضا في: [سورة الرعد ٣]، [سورة الحجر: ١٩]، [سورة الأنبياء: ٣١]، [سورة النمل: ٦١]، [سورة لقمان: ١٠]، [سورة فصلت: ١٠]، [سورة ق: ٧]، [سورة المرسلات: ٢٧].

فإن كل واحدة منها مكوّن من مركبات كيميائية. وأن هذه المركبات الكيميائية متكوّنة من ارتباط ذرات متنوعة. وذلك من خلال روابط كيميائية، وهذه الروابط الكيميائية ناشئة من حركة متعكسة للإلكترونين. وأن كل ذرة من الذرتين المترابطتين تساهم بالإلكترون واحد أو أكثر لتكوين رابطة واحدة أو أكثر مع الذرات الأخرى. فإذا توقف الإلكترون عن حركته (بالأمر الإلهي) فإنه سيلبّي طائعا كما تمّ ذلك للسماوات والأرض حيث سمعنا النداء الرباني فاستجابتا بإرادتهما الذاتية ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]. وستتطعم الرابطة الكيميائية وستفكك المركب متحوّلا إلى ذراته وهذه الذرات تموت بموت الحركات الأخرى لمكونات النواة. حينئذ لم يعد هناك وجودا كما كان ولا موجودات وتعود كلها إلى مكونات الذرة الساكنة غير المتحركة وينتهي الكون إلى عالم مكونات الذرة والله العالم.

فالجبال بعدما تصير كثباناً مهيلاً يسيرها على وجه الأرض كما تسير

السحاب في السماء لا بل ستصبح كالسراب لا حقيقة لوجودها ﴿وَسَيَرَّتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [سورة النبأ: ٢٠]، فهي هباء منتشرا. ولأن الإنسان لا يستطيع وصف الهباء أكثر مما عرّف على أن الهباء هو شيء مرئي في شعاع الشمس الداخل من الكوة. وفي الحقيقة هو لا شيء كما وصف الله عمل الكافرين في الآخرة فوصف عملهم المحبط بأنه هباء: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٣]، فتصبح الجبال الرواسي المثبتة للأرض هباء منثورا ولا ترى وإنما هي وهم كالسراب لا حقيقة له.

٢. الأرض:

لقد خلق الله الأرض وجعلها مبسوبة محلا للاستقرار ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [سورة البقرة: ٢٢]، وجعلها قرارا ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [سورة غافر: ٦٤] ومهدّها للعيش ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [سورة طه: ٥٣]، كما أن الله سبحانه قد مكن الإنسان منها والعيش فيها ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي

الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ [سورة الأعراف: ١٠]. لقد أحكم الله صنعه وما كان خلقه للأرض من غير نظام، فما خلق الله سبحانه وتعالى السماء والأرض وما بينهما لعباً ولهواً وما أبدعها عبثاً ولغير غاية وغرض حاشا الله وتعالى الله علوا كبيرا ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ [سورة الأنبياء: ١٦]. فلم يكن خلقها من غير غاية ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [سورة ص: ٢٧] بل أنه سبحانه قد خلقها بالحق ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [سورة الدخان: ٣٩]. وحفظها من الزوال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [سورة فاطر: ٤١]، ولكن هذه الأرض لا تبقى كما هي. بل سيتغير النظام، وينشأ نظام غير هذا النظام الذي نعهده ولا يمكن أن نتصوره، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٨]، والله العالم كيف ستكون، فستزول عنها الجبال وتصبح مستوية لا جبال ولا وديان ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [سورة الكهف: ٤٧]. ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ

الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (المصباح)

وتبديله إلى أجزاء صغار، وحمل الأرض والجمال إحاطة القدرة بها، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية^(٥٤).

٣. السماء:

هذه السماء التي بنيت^(٥٥) بأيد^(٥٦) وقدرة، وجعلت سقفا محفوظا^(٥٧)، عالية الدقة في الجمال والنظام، وجعل فيها بروجاً وزينة^(٥٨)، سيتغير ويتبدل نظامها ولم تعد كما كانت عليه. وسوف لا أذكر إلى ما سيجري لها فقد أذكره في مكان آخر. وهنا سأذكر الآيات التي تناولت هذا التبدل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ

(٥٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٩، ص ٣٩٧.
(٥٥) [سورة البقرة: ٢٢]، [سورة غافر: ٦٤]، [سورة ق: ٦]، [سورة الذاريات: ٤٧]، [سورة النازعات: ٢٧]، [سورة الشمس: ٥].

(٥٦) [سورة الذاريات: ٤٧].

(٥٧) [سورة الأنبياء: ٣٢].

(٥٨) [سورة الحجر: ١٦]، [سورة الفرقان: ٦١]، [سورة فصلت: ١٢]، [سورة ق: ٦]، [سورة الملك: ٥]، [سورة البروج: ١].

مُدَّتْ ﴿[سورة الانشقاق: ٣] فلا حائل أو حاجز فيغطيها نور الله ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴿[سورة الزمر: ٦٩]. وتشقق ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴿[سورة ق: ٤٤]، فتهتز الأرض وتزلزل ويدق بعضها على بعض فترج رجا ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿[سورة الواقعة: ٤]. وتذك دكا ﴿إِذَا ذُكِّتِ الْأَرْضُ ذُكَّا ذُكَّا ﴿[سورة الفجر: ٢١]. فترجف الأرض ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴿[سورة المزمل: ١٤]، فتزلزل كل الأرض زلزلة قوية ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿[سورة الزلزلة: ١]، فستفرغ ما في داخلها ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿[سورة الزلزلة: ٢]، فتضطرب الأرض وتتردد في الذهاب والمجيء مثل الموج ﴿أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿[سورة الملك: ١٦]، فتحاط بالقدرة الربانية فتدك وتفتت إلى أجزاء صغيرة فتدك الأرض بدكة واحدة لا تشنى بأخرى تقضي على وجودها، ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿[سورة الحاقة: ١٤]، وهذا يعني أن "الدك أشد الدق وهو كسر الشيء

لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ
وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿سورة
الأنبياء: ١٠٤﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿سورة
الطور: ٩﴾ فَأَرْقَبَ يَوْمَ تَأْتِي
السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿سورة الدخان:
١٠﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً
كَالدِّهَانِ ﴿سورة الرحمن: ٣٧﴾ إِذَا
السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿سورة الانفطار: ١﴾
﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾
﴿سورة المزمل: ١٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿سورة
المرسلات: ٩﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ
فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿سورة النبأ: ١٩﴾ إِذَا
السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿سورة الانشقاق: ١﴾
﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [سورة
الحاقة: ١٦] ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [سورة
التكوير: ١١] ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾
[سورة المعارج: ٨].

فالله سبحانه وتعالى خلقها في بداية
خلقها فكان حالها كالدخان، "حال كونها
شيئاً سواه الله دخاناً وهو مادتها التي ألبسها
الصورة" (٥٩): ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ
(٥٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد
محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)،

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِمَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أُنْتِنَا طَائِعِينَ ﴿سورة فصلت: ١١﴾.
وشاء الله سبحانه أن ينتهي كيان
السماء بعد تلك الصور التي رسمها
القرآن الكريم من خلال الآيات أعلاه
من التشقق والتقطع والانصهار والوهن
والضعف بعد ذلك تعود هذه السماء الى
الصورة نفسها التي بدأت منها، وهي
التي وصفها سبحانه وتعالى بالدخان:
﴿فَأَرْقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾
[سورة الدخان: ١٠]. لقد ذكر الله
سبحانه في الآية الشريفة: ﴿يَوْمَ نَطْوِي
السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤].
فبعد طي السماء بمعنى "ذهابها عن
الحس" (٦٠)، أو «يفنيها فتتحول دخاناً» (٦١)،

ج ١٧، ص ٣٦٥.
(٦٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي
الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق
والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
(٦١) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي
(القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي
للمطبوعات، بيروت، ج ٢، ص ٧٧.

الصورة القرآنية لانتهيار الموجودات..... (المصباح)

الفصل ٨:

الموت والفناء والإعدام والهلاك:

الإعدام كما عرفه الطوسي على أنه تفريق الأجزاء، وفصل أكثر فجعل المكلف يعاد وذلك بجمع أجزائه بينما لا يعاد غيره، وجاز إعدامه بالكلية ولا يعاد ويصدق عليه أنه هالك بمعنى أنه غير منتفع به، أو يقال: إنه هالك بالنظر إلى ذاته، فقال «فإن المكلف بعد تفريق أجزائه يصدق عليه أنه هالك بمعنى أنه غير منتفع به، أو يقال: إنه هالك بالنظر إلى ذاته، فالإعدام بتفريق أجزائه ولا امتناع في ذلك، فإذا فرق أجزائه كان هو العدم فإذا أراد الله تعالى إعادته جمع تلك الأجزاء وألفها كما كانت فذلك هو المعاد. ويدل على هذا التأويل قوله تعالى في سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية الإحياء للأجزاء في الآخرة، لأنه تعالى لا يحيي الموتى في دار التكليف وإنما الإحياء يقع في الآخرة، فسأل إبراهيم عليه السلام عن كيفية ذلك الإحياء وهو يشتمل على السؤال عن جميع المقدمات التي يفعلها الله تعالى حتى يهيئهم ويعددهم لنفخ الروح، فأمره الله تعالى بأخذ أربعة

وأن الطي للسماء هو «رجوعها إلى خزائن الغيب بعدما نزلت منها وقدرت»^(٦٢) كما قال تعالى: ﴿وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر: ٢١]. فتعود السماء الى الحالة التي ابتدأها سبحانه وتعالى قبل الخلق، فاعتبر سبحانه وتعالى "تشبيه الاعادة بالإبداء في جواز تعلّق الارادة والامكان، او تشبيه المعاد بالمبتدئ"^(٦٣). بمعنى آخر «يعيد أول الخلق كما بدأه، تشبيها للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء، وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟. قلت: أوله إيجاداه عن العدم، فكما أوجده أولا عن عدم، يعيده ثانياً عن عدم»^(٦٤).

(٦٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٤، ص ٣٢٩.
(٦٣) تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجنازدي الملقب بسلطان علي شاه (ت القرن ١٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
(٦٤) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩، ج ٣، ص ١٣٧.

من الطير وتقطيعها وتفريق أجزائها ومزج بعض الأجزاء ببعض ثم يفرقها ويضعها على الجبال ثم يدعوها، فلما دعاها ميّز الله تعالى أجزاء كل طير عن الآخر وجمع أجزاء كل طير وفرقها عن أجزاء الآخر حتى كملت البنية التي كانت عليها أولاً ثم أحيّاها الله تعالى ولم يعدم تلك الأجزاء فكذا في المكلف، هذا ما فهمناه من قوله: كما في قصة إبراهيم عليه السلام، فهذا هو كيفية الإعدام» (٦٥).

إذن فإعدام الشيء هو تفريق أجزائه وجمعها إعادته للحياة، والسؤال هنا هو من الذي يجمعها بعد التفريق؟ فإن قلنا إن ذات الشيء تجمع نفسها فذلك غير ممكن لأنها في ذاتها مخلوقة ولا تملك لذاتها أن تحيي ذاتها بعد التفريق، وإنما من خلقها أول مرة قادر على أن يعيدها سيرتها الأولى. «فذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين: كونوا

(٦٥) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد- الخواجة نصير الدين الطوسي، (ت ٦٧٣ هـ)، شرح جمال الدين الحسن بن يوسف الحلي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص ٥٤٦.

أحياء، فيكونون أحياء كما كان شأنه في بدء الخلقة، ذلك إذ قال للسموات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين» (٦٦). وهذا ما نلاحظه في قصة إحياء الطيور المقطعة أجزاؤها، إذ عبّر عن إعادة الحياة بالسعي وهو نوع من الحركة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّا يَظْمِنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

وكذلك السماء والأرض فإن الله سبحانه وتعالى جمع أجزاءهما وكان دخان بعد تفرق. فأمر الدخان الذي هو مادة السماء والأرض أن يكون سماءً وأرضاً فكانا سماءً وأرضاً قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]. مع ملاحظة استجابة السماء

(٦٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ٢، ص ٣٦٨.

الصورة القرآنية لانتهيار الموجودات..... (المصباح)

«أي كل ذي شعور وعقل على الأرض سيفنى وفيه تسجيل الزوال والدثور على الثقليين»^(٦٨)، لقوله تعالى بالإشارة للضمير من في الآية الشريفة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦].

"إنّ ملاحظة المعنى اللغوي، والاستعمال القرآني للفظ الموت، يفيد أنّ الموت أمرٌ عديمي، ولكنه من زاوية أخرى، ليس أمراً عديمياً في موت الإنسان، وذلك لو فسّر الموت بقبض الملائكة الطاقات الحسية الموجودة في الإنسان؛ فإنه أمرٌ وجوديٌّ، وإن كانت النتيجة أمراً عديمياً. ويمكن جعله أيضاً من الأمور الوجودية في الإنسان، بمعنى آخر، وهو أنّ الموت نافذة على الحياة الجديدة"^(٦٩). يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في إشارة إلى أن الموت انتقال وليس فناء: «أيها الناس، إنّنا خلقنا وإياكم للبقاء، لا للفناء لكنكم من دار إلى دار

والأرض وطواعية فعلهما. وذلك لإرادتهما الذاتية ولعلمهما بقدرة القدير الذي أنطق كل شيء ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة فصلت: ٢١]. إذن فإنّ العدم هو تفريق أجزاء الحي، والحياة هي جمع الأجزاء.

وما هو الموت إذن؟ لقد وصف الموت على أنه "ما استحال معه النمو والإحساس ولم تصح معه القدرة والعلم وهو نقيض الحياة، والموت من فعل الله تعالى وليس لأحد فيه صنع ولا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى"^(٦٧). ويتعلق الموت بذوي روح مثل الحيوانات ومنها العاقل وهو الإنسان ذو الأفعال الاختيارية أو التي لها أفعال جبرية كباقي الحيوانات والنباتات. وعلى أي حال سواء كانت الحياة متعلقة بالروح أو النفس أو الحركة فالموت نقيض الحياة.

وأما الفناء فهو الموت لذوات الشعور

(٦٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٩، ص ١٠٠.
(٦٩) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار احياء التراث العربي، بيروت.

(٦٧) تصحيح اعتقادات الإمامية تأليف الإمام الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله العكبري، البغدادي (ت ٤١٣ هـ) تحقيق حسين درگاهي، ج ١، ص ٩٤.

تنقلون»^(٧٠)، فالفناء كما يتضح هو أمر عديمي.

والهلاك: «بطلان الشيء من العالم وعدمه رأساً»^(٧١)، وأن «هلاك الأشياء بطلان وجودها الابتدائي وخلو النشأة الأولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده»^(٧٢)،

ويتأكد لنا أن الأشياء كلها الى زوال ماعدا الواجب الوجود الخالق للأشياء، فهو هالكها جميعها ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. والفرق بين الإهلاك والاعدام: "أن الإهلاك أعم من الإعدام لأنه قد يكون ينقض البنية وإبطال الحاسة وما يجوز أن يصل معه اللذة والمنفعة، والاعدام نقيض الإيجاد فهو أخص فكل إعدام إهلاك وليس كل

إهلاك إعداماً»^(٧٣). وسأقف عند هذه العبارة في موضوع الانتقال بعد النفخة الثانية والتي تسمى نفخة الإحياء التي هي بعد النفخة الأولى نفخة الإماتة حيث يتحقق الهلاك الكامل لكل شيء، وسيكون في الفصل التاسع.

الفصل ٩: السكون:

يعرف السكون على أنه «ثبوت الشيء بعد تحرك»^(٧٤). كما في حال سكون الأرض ووقوفها عن حركتها فإنه سيمتد الظل وسيدوم، فالحركة الطبيعية للأرض حول نفسها ستجعل الظل يمتد ويطول بدلالة الشمس، ولو شاء الله لجعل الظل ساكناً بسكون الأرض كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [سورة الفرقان: ٤٥]. "ولازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل

(٧٠) الإرشاد: للشيخ المفيد، ص ١٢٧.

(٧١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم - الدار الشامية، ٢٠٠٩، مادة هلك.

(٧٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٦، ص ٩٢.

(٧٣) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥ هـ)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

(٧٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم - الدار الشامية، ٢٠٠٩.

الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (المصباح)

الحادث بعد الزوال من التمدد شيئاً فشيئاً من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الأفق حتى إذا غربت كانت فيه نهاية الامتداد وهو الليل، وهو في جميع أحواله متحرك ولو شاء الله لجعله ساكناً، والدليل هي الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك ظلاً وبانبساطه شيئاً فشيئاً على تمدد الظل شيئاً فشيئاً ولولاها لم ينتبه لوجود الظل" (٧٥). فقال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٤٥-٤٦].

للشمس في نهار دائم سرمدي، والوجه البعيد عن الشمس سيقع بمخروط الظل وسيكون في ليل سرمدي، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة القصص: ٧١-٧٢]. ومن المعلوم أن حركة الرياح والمياه في البحار والمحيطات كلها ستتأثر بحرارة الأرض وبمعنى آخر أن حركتها حول الشمس مرهونة بحرارة الأرض. وبثبوتها فإن حركة الرياح ستسكن وكذلك تيارات الماء، قال تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ [سورة الشورى: ٣٣].

ولكن في تصوّر آخر؛ فيما إذا توقفت الأرض في دورانها حول نفسها فجأة، فإن الجو المحيط بالأرض سيستمر بسرعه الأصلية وهي سرعة دوران الأرض والتي تساوي ١٧٦٠ كيلومتر في الساعة على خط الاستواء، وهذا يكفي لكنس ما على وجه الأرض ليس له جذور صخرية.

قلنا إن المتحرك لا يتحرك بذاته بل يحتاج الى محّرك، وهنا يضع الله سبحانه وتعالى تساؤلين فيما لو غيرت الأرض دورانها حول نفسها حول القطب الحالي الشمالي الجنوبي الى محور عرضي عمودي على الشمس، أي كحركة القمر حول نفسه حول محوره العمودي على الأرض، فماذا سيكون؟. سيكون الوجه المواجه

(٧٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٥، ص ٢٢٥.

وكذلك ستتلاطم مياه المحيطات والبحار لتنسكب جانبا، فتغمر كل شيء، كما وسيطول اليوم ليصبح مساويا ٣٦٥ يوما عاديا.

وسيواجه نصف الأرض للشمس وترتفع درجة الحرارة، بينما النصف الآخر سيغمره الظلام وسيبرد كثيرا، ولا نرى ما تعودنا عليه من تبدل الليل بالنهار وغروب وشروق إلا بعد نصف عام. وماذا بعد؟.

لو توقفت الأرض عن دورانها حول الشمس فماذا يحدث؟.

يرسم العلماء صورة افتراضية معتمدة على الحسابات الرياضية فيفترضون أن الأرض ستتسارع بالسقوط نحو مركز الشمس. والتي تبعد عنها بـ ١٥٠ مليون كيلومتر، وأن رحلتها ستستغرق ٦٤ يوما ونصف، بينما سترتفع درجة الحرارة بشكل مضطرد الى أن تصل الى ٣٠٠ درجة مئوية في اليوم الستين والأيام الأربعة الأخيرة سترتفع بشكل سريع الى أكثر من ٣٠٠٠ درجة مئوية.

ويقال: إنه بعد شهر من رحلة الأرض

نحو الشمس وبتلك السرعة الهائلة تؤدي الى رفع درجة حرارتها الى ٥٨ درجة مئوية، وسيصبح حيثئذ نور الشمس شديدا جدا. بينما تبدأ المعامل على الأرض بالتوقف، وستحترق الغابات وتموت معظم الحيوانات ويصبح العيش صعبا. وباقتراب الأرض من الشمس أكثر فإن درجة حرارة الماء سترتفع أكثر فيؤدي الى خروج بعض الغازات الذائبة في الماء وأحدها الأوكسجين، فتموت الأسماك بسبب نقص الأوكسجين بينما ترتفع نسبة غاز الأمونيا، وبذلك فإن بارتفاع درجة حرارة الماء فإنها ستقضي على سلسلة الغذاء الموجودة في الماء، وهذا يعني موت الحياة المائية. ولا يفوتنا أن نذكر أنه سيسبقها جفاف الهواء الذي يؤدي الى قتل الحشرات.

وبينما تستمر رحلة الأرض نحو الشمس، وحينما تصل درجة الحرارة ١٠٣ مئوية سيبدأ الماء بالجليان على سطح المحيطات والبحار، عندئذ سيغطي الأرض بخار كثيف. ولكن بسبب الضغط العالي في أعماق المحيطات فإنه يمنع من

الصورة القرآنية لانهار الموجدات..... (المصباح)

غليان الماء في الأعماق.

وفي اليوم الأخير، فإنه ستقرب الأرض جدا من الشمس وبسبب الجذب الهائل من قبل الشمس فإن شكل الأرض سيتغير الى الشكل الكمثري فينسحب الوجه المقابل للشمس بقوة، مما يعجل في فتق وجه الأرض وتشقق الصخور وتنفجر وتخرج ما فيها على شكل حمم من بين الصخور المنفطرة. ثم تبدأ الصخور بالانصهار. علما أن درجة حرارة سطح الشمس هي ٥٧٠٠ كلفن، بينما في مركزها فإنها تساوي ١٥ مليون كلفن^(٧٦).

ولو تساءلنا، ماذا لو اختفت الشمس من مدارها المرسوم لها؟. من المعلوم أن الشمس تتحرك بجريان نحو مستقرها أو حتى تنتهي إلى مستقرها ومن ثم استقرارها وسكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله بذلك الجريان فإنه مقدّر بزمن ومكان محددين ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: ٣٨]، على أن

"ظاهر الجري هو الدال على الانتقال

(٧٦) الصفر المتوي تساوي ٢٧٣ كلفن.

من مكان إلى مكان"^(٧٧)، فالشمس لا تزال تجري ما دام النظام الديوي على حاله حتى تستقر وتسكن بانقضاء أجلها حينئذ ستخرب الدنيا ويبطل هذا النظام، وعندئذ فإن الأرض ستفعل من مدارها حول الشمس وستسير بسرعة مستقيمة مهولة وبسرعة ٣٠ كيلومتر في الثانية. ومن ثم سيغمر الأرض ظلام دامس وستبرد حرارتها بشكل سريع. ومن المعلوم أن ٩٩.٩٪ من الإنتاج الطبيعي على الأرض هو من عمليات التمثيل الضوئي والتي تعتمد على الشمس، كما لم يعد باستطاعة النباتات أخذ ثاني أكسيد الكربون، وطرح الأوكسجين الغاز الحيوي. علما أن اختفاء ضوء الشمس يستغرق ٨ دقائق و ٢٠ ثانية يومئذ سنرى آخر غروب للشمس. وآخر شيء يراه الإنسان هو القمر قبل انتهاء التسعة دقائق الأخيرة. وبعدها يعم الأرض الظلام، ولكن لا يزال يصلنا ضوء

(٧٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٧، ص ٨٩.

الفصل ١٠:

الصورة القرآنية للحظة

انهيار الموجودات:

يرسم القرآن الكريم الصورة الحقيقية لما سيجري عند بدء العالم الأخروي، فسيحصل تغيير كوني شامل، وأنه سيقوم نظام جديد لا يعتمد على السنن المتعاهد عليها التي أودعها سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا.

ونؤكد هنا تماما جهلنا بما سيجري يومئذ إلا ما أشار له القرآن الكريم. وسنمر على ما ذكره القرآن الكريم بالإفادة أيضا من التصورات العلمية التي سنّها الله سبحانه وتعالى والتي على أساسها قام الكون، وبانهيارها سينتهي ذلك النظام الكوني الجميل الذي وصفه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ

وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة

ضعيف جدا من المجرة التي نحن فيها ولكن بشدة قليلة مساوية لـ ١/٣٠٠ من ضوء القمر، وهو كما ترى ضئيلا جدا لا يكفي حتى للرؤية، فستنار المدن بالإنارة الاصطناعية. بينما يعم الظلام المناطق الأخرى غير المضاءة.

وكما أسلفنا فغياب ضوء الشمس سيتوقف التمثيل الضوئي ولم يعد هناك امتصاص لغاز ثاني أكسيد الكربون لإنتاج غاز الأوكسجين الغاز الحيوي لبقاء الكائنات الحية على الأرض. كما أنه وبعد أسبوع واحد من غياب ضوء الشمس فإن سطح الأرض سيبرد الى درجة الانجماد أو أقل منها. وبالتأكيد فستموت جميع النباتات وسيتبعها موت كل الحيوانات ومنها الإنسان الذي يعتمد على النبات، وبعدها بعام ستنخفض درجة الحرارة الى (٧٣-) درجة مئوية وعندها ستتجمد كل المياه في العالم.

كان ذلك التصور العلمي للتغيرات المتوقعة في النظام الشمسي. وهو كما ترى مجرد افتراضات لا يمكن تأكيدها بتجربة. ولنعد الآن للصورة القرآنية.

الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (المصباح)

البقرة: ١٦٤].

فأرضنا جزء من الكون المحاط بسقف يحفظه وهي السماء ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [سورة الأنبياء:

٣٢] التي زينها سبحانه وتعالى بمصابيح ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [سورة

الملك: ٥]، ولأن الكواكب لا تزول عن مستقرها وكذا النجوم. فجعل السماء الدنيا جميلة مزدانة بضوئها ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [سورة الصافات:

٦]. وقد زادها جمالا بأن جعل للشمس والقمر منازلًا وبروجًا وهو ما يزيد الناظرين للسماء بهجة وجمالا بتفاوت لمعان الكواكب، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ﴾ [سورة الحجر: ١٦]. ماذا سيحدث لهذا الكون الباهر الجمال، ومتسق النظام إذا اختل نظامه؟.

ماذا لو اختل النظام الشمسي؟.

ذكرنا فيما سبق؛ التصور العلمي لانزلاق الأرض نحو الشمس مارة بأفلاك الكواكب الشمسية بالترتيب نحو الشمس. لقد افترضوا الأزمان استنادا

لسرعة الأرض وتسارعها نحو الشمس، ثم افترضوا أن الرحلة تستغرق نحو ٦٤ يوما ونصف اليوم، والله العالم بكل ما سيجري لأنه لا أحد يعلم ولم تجرب تجربة في ذلك بل هي مجرد افتراضات لا تمنعنا من التدبر والتفكير.

ويصف القرآن الكريم مشاهدا لما سيجري للأرض والكون كالتي ذكرناها سابقا ومتممة لها ولكننا جمعناها لوحدها.

١. الأرض والشمس:

لنبداً من أن الأرض كوكب تابع للشمس وأن الحياة مرهونة بوجودها على ما هي عليه، ثم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل واحدة من غايات خلق الشمس والقمر هو لتنظيم الحساب إلى سنين وأشهر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: ٥]. وهذه

الشمس قد رسم لها فلكا ومسارا تجري فيه وتنتقل من مكان لآخر كما أَرَادَهُ اللهُ لها وقدره تقديرا حكيما الى أن تبلغ أجلها

وغايتها؛ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ﴾ [سورة
لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ] سورة
يس: ٣٨].

ويظل الشمس والقمر متلازمين لما
خط لهما من المسير. وفيه لا تدرك الشمس
القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول
بهما، ولا يمكن لأحدهما أن يتداخل بفلك
الآخر فكل له تقديره الدقيق جدا وبحركة
الأرض حول نفسها يتكون الليل والنهار.
فلا الليل سابق النهار، "بل هما متعاقبان
في التدبير فيتقدم الليل النهار فيجتمع
ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان" (٧٨). فكل
من الشمس والقمر وغيرهما من النجوم
والكواكب يحرون في مجرى خاص به
ومحفوظ. قال تعالى ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي
لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ
فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: ٤٠].

وقد قدر الله سبحانه وتعالى للشمس
والقمر بحساب منه فيجريان على ما قدر
لهما من نوع الجري ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

(٧٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد
محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)،
ج ١٧، ص ٩١.

بِحُسْبَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٥]. وعلى هذا
النظام الدقيق دامت الحياة على الأرض
واستقامت وعمرت.

وماذا لو توقفت الأرض عن الدوران
حول نفسها؟

فسيكون -كما أسلفنا- ليل في
نصف الأرض المعاكس للشمس أمده
نصف سنه والنصف المواجه للشمس
نهار ويستمر لنصف سنة أيضا، وأما إذا
ما غيرت الأرض دورانها حول نفسها
بالدوران الطبيعي حول قطبها الشمالي
الجنوبي وأصبح دورانها حول قطبها
العرضي العمودي على الشمس، فسيصبح
دورانها وقتئذ حول نفسها كما هو دوران
القمر حول نفسه، ولكن لم يعد هناك ليل
ونهار وتعاقب بينهما. بل لها وجه بعيد عن
مواجهة الشمس ولا يرى نورها، وآخر
يواجه الشمس دائما، فيعني ذلك سرمدية

كل من الليل والنهار معا. قال تعالى: ﴿قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى
يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ
أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ

الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (المصباح)

أفلاك تجري فيها، وستنفرط كما ينفرط العقد فتتناثر اللآلئ، ويضطرب نظام حركتها ويختل، ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [سورة الانفطار: ٢]. ويتزامن مع ذلك تماماً أن تتوقف الأرض عن دورانها حول نفسها وحول الشمس فجأة مما يجعل من الهواء المحيط بالأرض وكذلك من المياه الموجودة في البحار والمحيطات أن تستمر بحركتها وهي المساوية لسرعة دوران الأرض قبل التوقف وهي ١٧٦٠ كيلومتر في الساعة على خط الاستواء، فهذا يكفي لكنس ما على وجه الأرض ليس له جذور صخرية. فيرسل الله سبحانه وتعالى الحاصب وهي الريح المهلكة في البر والقاصف وهي الريح المهلكة في البحر. ريحاً كاسرة للسفن أو مهلكة مغرقة لكل شيء؛ ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيْعًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٨ - ٦٩]. فإن هذه الريح ستقتلع ما علا سطح الأرض

إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة القصص: ٧١ - ٧٢].

اما إذا ما تغيرت الشمس وتكوّرت، وذلك بأن "يجمع نورها ويذهب ضوءها ويحدث الله تعالى للعباد ضياء غيرها" (٧٩)، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [سورة التكوير: ١]، فتتكور الشمس يعني "انظلام جرمها" (٨٠). وسينطفئ نورها وسينكدر ضياؤها، وسيحدث ذات الانكدار للشموس الأخرى تماماً كما لشمسنا، وستمحي آثارها ويذهب نورها فتطمس؛ ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [سورة المرسلات: ٨]. فبعضها أكبر من شمسنا وأشد ضياءً ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [سورة التكوير: ٢]، ويومئذ ستتهاوى كل النجوم والكواكب فلا نظام يحدها ولا

(٧٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ٢٧٦.

(٨٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ٢٠، ص ٢١٣.

فتثير التراب و"ستقلب باطنها إلى ظاهرها وكذلك تشمل القبور" (٨١)، ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ [سورة الإنفطار: ٤]، ريح شديدة عاصفة تدفع أمواج البحر العالية فتحيط بهم من كل جانب؛ ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [سورة يونس: ٢٢]، وكذلك ستتلاطم مياه المحيطات والبحار لتنسكب جانبا، فتغمر كل شيء، وسينفتح بعضها في بعض حتى يزول الحائل ويختلط العذب منها والمالح ويعود بحراً واحداً، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [سورة الإنفطار: ٣]، يحدث ذلك بعدما غاب النظام الذي كان حافظاً لها حيث جعل سبحانه وتعالى الأرض مستقرة لا تميد بنا وجعل في فرجها التي في جوفها أنهاراً وجعل لها جبلاً ثابتة وجعل بين البحرين مانعاً من اختلاطهما وامتزاجهما، ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ

حَاجِزًا﴾ [سورة النمل: ٦١]. سيغيب ذلك وينتهي، وسيعم الأرض حينئذ ظلام دامس هذا ما سيحدث على الأرض. وبالتأكيد فسيكون من الأسهل للقمر عند اختلال النظام، فينخسف نوره، ويذهب ضيائه، قال تعالى: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ [سورة القيامة: ٨] وهنا يجتمع الشمس والقمر على غياب نورهما ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [سورة القيامة: ٩]، فيجتمعان، وقد يكون جمعها "جمعاً في ذهاب نورهما بما يراه الانسان. وجعل أحد الشئيين مع الآخر. فالجمع على ثلاثة اقسام: جمع في المكان، وجمع في الزمان، وجمع الاعراض في المحل. وجمع الشئيين في حكم او صفة مجاز" (٨٢). لا بأس حتى وإن جمعا في المكان والزمان فيمكن ذلك، ولم يعد هناك سراج ولا قمر منير، وهما اللذان كانا يزينان السماء الدنيا بنورهما ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٦١]، فتبارك

(٨١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ٢٠، ص ٢٢٣.

(٨٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ١٩٣.

الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (المصباح)

الرحمن من اتقان محكم متين.

ولم يعد ذلك التلازم قائماً بينهما، ووقتنا لا يتعداه أحدهما على الآخر، ذلك التوقيت المتلازم والمتبادل الذي ينتج عنهما الليل والنهار. والذي كان يومئذ في الحياة الدنيا وتنعم بها الموجودات على الأرض:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

[سورة يس: ٤٠]، ولكن باختلال هذا النظام الدقيق حينئذ لم يعد هناك فلك خاص لكل واحد منهما، بل سيجتمعان ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [سورة القيامة:

٩]. فسينشق القمر وينفلق الى نصفين "فينفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين" (٨٣) قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [سورة القمر: ١].

٢. النجوم والسماء:

ولم تعد هناك نجوم يُهتدى بنورها ومواقعها ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [سورة

الأنعام: ٩٧]، بعدما كانت مسخرة للإنسان في حياته يهتدي بها في الليالي الحالكة الظلام، فيذكرهم سبحانه وتعالى بجمال نظمها وترتيب مواقعها الدقيق: ﴿أَمْ نَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [سورة النمل: ٦٣].

وأما السماء التي كانت مثل السقف المحفوظ والمحكم فإنها بعدما تهاوت النجوم وتناثرت، وانطفأ نورها فستصبح واهية ضعيفة، وستكون كالدخان فتضعف وتضمحل. فهي في مور شديد ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [سورة الطور:

٩]، ولم تعد تلك السماء "ذات الطرائق الحسنة المراد منها مسير الكواكب او نضدها على طرائق التزيين" (٨٤) تلك التي أقسم بها الله سبحانه وتعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ [سورة الذاريات: ٧]. فإنها

ستتشقق وتصبح واهية رخوة، ضعيفة مسترخية، بانتقاض بنيتها ولا ينظر أكثر هولاً من رؤية السماء في

(٨٤) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران، ج ٥، ص ٣٦.

(٨٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٩، ص ٥٥.

هذه الهياة، ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَفِيَّ يَوْمٍ ذِي وََاهِيَةٍ﴾ [سورة الحاقة: ١٦]، وستنفرج فتشقق وتتصدع ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ﴾ [سورة المرسلات: ٩]، و"تشققها هذا سيصبح كقطع الأبواب" ^(٨٥)، ﴿وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [سورة النبأ: ١٩]؛ "فشقت شقوقاً" ^(٨٦)، "وتتقطع" ^(٨٧) ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ [سورة الانفطار: ١]، وستنطر وتنصر أو أنها ستجري كالدهان "فإنَّ الدهن إذا صبَّ بعضها فوق بعض اختلف ألوانها ودُردي الزيت أيضاً تختلف ألوانه" ^(٨٨)، وستصير حمرة كالأديم الأحمر؛ ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [سورة الرحمن: ١٥]

(٨٥) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠هـ).

(٨٦) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران.

(٨٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٨٨) تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجناذدي الملقب بسلطان علي شاه (ت القرن ١٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

[٣٧]، وذلك كله لأنها أطاعت وانقادت لربها وكانت حقيقة وجديرة بأن تستمع وتطيع فتشقق وتتصدع وتنفرج ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ ^(١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ [سورة الانشقاق: ١-٢].

فلم تعد سماء جميلة رائعة كما عهدناها مبنية بقوة ومثانة من قبل القدير ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَ يَدَيَّهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٤٧] ولم تعد سقفا محفوظا ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [سورة الأنبياء: ٣٢] تزينه الكواكب ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [سورة الصافات: ٦]، لكنها ستكشط "بالقلع عن شدة التزاق فينطبق على طيها" ^(٨٩)؛ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [سورة التكوير: ١١] فتطوى بقدرة القدير ويحكم قبضته "فيطويها بقدرة كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه" ^(٩٠) ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ

(٨٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(٩٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق

الصورة القرآنية لانهيار الموجودات..... (المصباح)

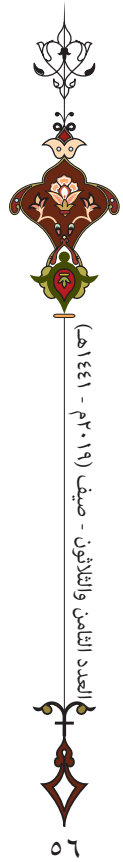
"دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب،
يمكث أربعين يوماً وليلة، أمّا المؤمن
فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر
فبمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه
ودبره" (٩٤).

فالسمااء هي الشاهد الأول على
اختلال النظام الكوني، فلم يعد هناك
تزامنا، ولا أفلاكا ولا بروجاً للكواكب
ولا للشمس ولا منازل للقمر كالتي أقسم
بها سبحانه وتعالى ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾
[سورة البروج: ١] التي جعلها زينة
للناظرين، في جوّها من البهجة والجمال
الذي يولّه الألباب بنجومها الزاهرة
وكواكبها اللامعة على اختلاف أقدارها
وتنوّع لمعانها ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ
بُرُوجًا وَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ﴾ [سورة
الحجر: ١٦] وحفظها سبحانه وتعالى
من كل ما يسيء لها ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [سورة الحجر: ١٧].
وزينها سبحانه وتعالى بزينة الكواكب

(٩٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر
مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي،
بيروت، ٢٠٠٥، ج ١٦، ص ١٣٢.

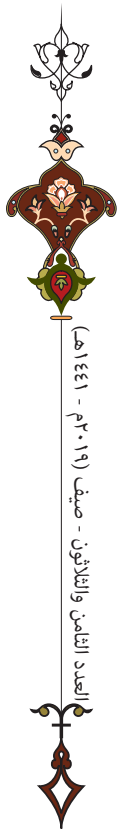
يَمِينِهِ﴾ [سورة الزمر: ٦٧]، فيطويها
كطي السجل ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ
السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ [سورة الأنبياء:
١٠٤] أو يطويها بمعنى "يفنيها فتتحول
دخاناً" (٩١). ثم تصير مائعة "كدردي
الزيت، أو كعكر القطران، أو مصهور
الفضة" (٩٢) فتنصهر السماء تماماً وتصير
"كمصهور النحاس أو الرصاص" (٩٣)،
أو الفلزات، فتكون كالمهل: ﴿يَوْمَ تَكُونُ
السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [سورة المعارج: ٨].
فتملاً فضاء الكون كله بالدخان أو ما
يشبه الغيوم ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾
[سورة الفرقان: ٢٥] ويتشر دخان غليظ
يغشى الناس ويغطيهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ
بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الدخان: ١٠].

والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
(٩١) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي
(القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي
للمطبوعات، بيروت.
(٩٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي
الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق
والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
(٩٣) تفسير القمي، أبو علي بن إبراهيم القمي
(القرن الثالث)، مؤسسة الأعلمي
للمطبوعات، بيروت، ج ٢، ص ٧.



فكانت من الجمال ما يبهر العقول ﴿ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ [سورة الصافات: ٦]. وإن ذلك الكون الفسيح المتنامي والمتحرك نحو التوسع والامتداد، وذلك "البناء الواسع الفضاء عجيب، فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤون" (٩٥) ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [سورة الذاريات: ٤٧]. لم تصمد هكذا إذا جاء الوعد الحق ﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٧]، فستهاوى هذه النجوم وتتساقط من مواقعها التي حددها لها سبحانه وتعالى ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥]. وسينمحي أثرها فتطمس ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ [سورة المرسلات: ٨]، حينئذ سينطفئ نورها وتموت ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [سورة التكوير: ٢]، بعدما كانت تثقب الظلام بضوئها ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ [سورة الطارق: ٣]، فتفقد مواقعها وأفلاكها وتتناثر كالعقد المنفرط

في الكون ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اُنْثَرَتْ ﴾ [سورة الانفطار: ٢].
٣. الشمس والأرض:
أما شمسنا فإنها ستتسارع نحو غايتها ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [سورة يس: ٣٨].
أخذة معها كل الكواكب الشمسية وأرضنا واحدة منها ومعها القمر. فيجتمع القمر مع الشمس ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [سورة القيامة: ٩]. فسينشق القمر وينفلق الى نصفين "فينفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين" (٩٦) ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [سورة القمر: ١].
لتوقف هنيهة ونتمعن في التغيرات قليل اجتماع الأرض بالشمس المعبر عنها بالقرآن الكريم اجتماع الشمس والقمر. وسوف لا أعتبر التسلسل في الحوادث هي قطعية وإنما علمها عند الله سبحانه وتعالى وإنما رتبناها ليسهل علينا تصورها.
فستمرور الأرض وتحسف وينقلب



الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (المصباح)

الانشقاق: ٣]، فلا وجود للأشجار وستصبح أرضا صفصفا ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [سورة طه: ١٠٦]، بعدما تنسف الجبال نسفا فتندري وتتطاير ولم يعد لها وجودا ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [سورة طه: ١٠٥] فتتسطح وتصبح ملساء ولم يعد فيها ارتفاعا ولا انخفاضاً ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [سورة طه: ١٠٧]، فينهار النظام الشمسي، فلا الأرض تدور حول نفسها ولا هي تدور حول الشمس ولم تعد الأرض في مدارها حول الشمس فتحدث فيها زلزلة عظيمة لا يمكن وصفها، فهي ليست كالزلازل المعهودة مع ما يرافقها من دمار وخراب. زلزلة ينتج عنها أن تتحرك الأرض كل الأرض، وتضطرب اضطرابا شديدا، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [سورة الزلزلة: ١]، "فإذا حُرِّكَتِ الْأَرْضُ تحريكاً شديداً فأنها ستعم جميع الأرض. بخلاف الزلازل المعهودة التي تختص ببعض الأرض فتكون قوية لشدتها" (١٠٠).

(١٠٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق

سافلها على عاليها "وإن الله يخسف بهم الأرض بأمره وإذنه. فيحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، فيذهبون والأرض فوقهم تمور، فتلقيهم إلى أسفل السافلين" (٩٧) ﴿ءَأَمِنُم مِّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [سورة الملك: ١٦].

عندئذ لم تبق الأرض كما كانت عليه فستكتسحها الريح الشديدة السرعة بعدما يتوقف دورانها وأنها ستقتلع كل ما على وجهها فتمد "بزوال كل انشاء فيها وتستوي" (٩٨)، «فتنسط بانكداك جبالها وآكامها حتى تصير كالصحيفة الملساء» (٩٩) ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [سورة

(٩٧) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج ٣٠، ص ٧٠.

(٩٨) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة.

(٩٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ٦٩٩.

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾
[سورة الحج: ١] وتزعزع الأرض وما عليها وما تحتها فترجف الأرض بترديد واضطراب ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ (٦) تَبْعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿ [سورة النازعات: ٦]، فترج رجا عنيفا وتهتز هزا. كأن الأرض قد "حرّكت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء" (١٠١) ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ [سورة الواقعة: ٤]، ويرافق كل ذلك التحريك والاضطراب والزلزلة العظيمة صوت شديد زاجر ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [سورة النازعات: ١٣]، صوت يصك الأذان ويصعق كل سامع له. هذا الصوت الشديد المصاحب للخراب الكبير سوف لا يبقى كائنا حيا إلا وقتله حيثئذ يسود الأرض الموت في كل مكان ﴿ وَتُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَصْعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة الزمر: ٦٨]. " فإذا سمع الناس

والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(١٠١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩، ج ٦، ص ٢١.

ذلك الصوت وهو في الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفرعون عنده ويصعقون ويموتون" (١٠٢)، ﴿ وَيَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَفَرِجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة النمل: ٨٧]، وسنفصل بذلك الصوت الرهيب في الفصل القادم. ولم تعد أرضنا هي ذات الأرض التي نحن عليها فتبدل ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٨]، "فيزداد في الأرض وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد مد الأديم وتصير مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتغير السماوات بذهاب الشمس والقمر والنجوم وبالجملية سيتغير كل من الأرض والسماوات عما هو عليه الآن في الدنيا من الصفات والأشكال" (١٠٣). فلا الرياح العاتية الشديدة ولا ارتجاف الأرض يبقى ما في باطن الأرض على حاله. فستشقق

(١٠٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج ٢٤، ص ٢١٩.
(١٠٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار طيبة. ج ١٥، ب ٤٤، ص ١٩.

الصورة القرآنية لانهباء الموجودات..... (المصباح)

وتتفطر ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [سورة ق: ٤٤] فستلقي الأرض ما في باطنها على وجه الأرض المستوية الخالية من كل شيء وهي الساهرة (١٠٤)

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [سورة النازعات: ١٤]. فإن هذه الريح ستقتلع ما علا سطح الأرض فتثير التراب و"ستقلب باطنها إلى ظاهرها وكذلك تشمل القبور" (١٠٥)،

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ [سورة الإنفطار: ٤]. ولا تعود الأرض تحتل ما في داخلها كلما اقتربت من الشمس فيتشقق سطحها ﴿وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ﴾ [سورة الطارق: ١٢] فتتشقق الصخور ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [سورة عبس: ٢٦] وتخرج ما في بطنها من كنوزها ومعادنها وحممها ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا﴾ [سورة الزلزلة: ٢]، "وتخلو غاية الخلو حتى لم يبق

(١٠٤) الساهرة الأرض المستوية أو الأرض الخالية من النبات، الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ٢٠، ص ١٨٦.

(١٠٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ٢٠، ص ٢٢٣.

في باطنها شيء كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو" (١٠٦) ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [سورة الانشقاق: ٤].

٤. البحار والمحيطات:

وأما البحار والمحيطات فستتلاطم أمواجه وتنسكب بغزارة على السواحل فتغمر مياهها الأراضي الشاسعة وتتفرغ من مياهها وتمتلئ الأخرى. فيكون البحر مسجورا وهو تعبير عن «البحر الفارغ والممتلئ» (١٠٧) ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ﴾ [سورة الطور: ٦]، أو أن البحار ستفرغ "فتغض مياهها بتسجير النار فيها" (١٠٨) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [سورة التكويد: ٦]. فتتفجر البحار بعضها على بعض وتزول الحواجز بينها وتغرق الأرض،

(١٠٦) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤ هـ)، دار الحديث - القاهرة. ج ٣١، ص ١٠٤.

(١٠٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ٢٧٤.

(١٠٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٩، ص ٧.

و"تتفجر البحار بعضها في بعض فصارت البحور كلها بحراً واحداً ويرتفع البرزخ بينها" (١٠٩). ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [سورة الانفطار: ٣]. وأنها قد تسجرت فأوقدت فصارت ناراً تضطرم، فتمتلئ السماء بخارا شديدا وغماما يعم الأرض من كل جهاتها، ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّعْمِ﴾ [سورة الفرقان: ٢٥].

٥. الجبال:

وسيرافق هذا المشهد المخيف أن تتحرك الجبال وتسير تاركة جذورها فتزول جميعها فلا جبال ولا تلال. «فإذا زالت الجبال والتلال ترى الأرض بارزه لا تغيب ناحية منها عن أخرى بحائل حاجز ولا يستتر صقع منها عن صقع بساثر» (١١٠) ﴿وَيَوْمَ تُسَرُّ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضُ بَارِزَةً﴾ [سورة الكهف: ٤٧] فتصبح الأرض مستوية لا حواجز ولا جبال

(١٠٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
(١١٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٣، ص ٣٢١.

وكأن الشروق يرى على وجه الأرض، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر: ٦٩]. وتندك أجزاؤها وتتلاشى وتتكرر الجبال الى قطع صغيرة، "فكسرتا كسرة واحدة لا تشنى حتى يستوي ما عليها من شيء مثل الأديم الممدود. ويضرب بعضها ببعض الى أن تفتتت الجبال وسفتها الرياح وبقيت الأرض شيئاً واحداً لا جبل فيها ولا رابية. بل تكون قطعة مستوية وإنما فتدك الأرض جملة واحدة والجبال دكة واحدة" (١١١)، ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة الحاقة: ١٤] (١١٢)، «حتى صارتا غباراً» (١١٣). «فتصير الجبال رملا سائلا متناثراً» (١١٤)، وتصير ككثيب الرمل الذي يهيل إذا حرك من أسفله، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾

(١١١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
(١١٢) [سورة الفجر: ٢١].
(١١٣) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).
(١١٤) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

الصورة القرآنية لانهار الموجودات..... (المصباح)

الموهوم من الماء اللامع في المفاوز ويطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقة ولا حقيقة له على طريق الاستعارة" فستنتهي الجبال تماماً ولا يكون لها وجود.

الفصل ١١:

النفخة الأولى والنفخة الثانية

والانتقال الى النشأة الآخرة:

العنوان يتحدث عن إماتة الأحياء جميعها في الأرض والسماء ثم إحياءهم بعد إماتتهم، ثم الهلاك لكل شيء. وستحدث عن النفختين لنفهم معناهما وآثارهما كما صورهما القرآن الكريم. ونعرج فيما بعد ذلك على ما بعد النفخة الثانية وما قبل النشأة الآخرة وهي الهلاك لكل شيء إلا الخالق سبحانه وتعالى.

ويتردد في ذكر النفخة في القرآن الكريم لفظ الصُّور. والصور يعني: البوق الذي يستخدم عادة لإيقاف او لتحريك الجند وأحيانا القوافل ولقد استخدم لفظ الصور مقترنا بالنفخة في عدد من الآيات^(١١٧)، وهذا يدل على

(١١٧) [سورة الأنعام ٧٣]، [سورة الكهف ٩٩]، [سورة طه ١٠٢]، [سورة المؤمنون

[سورة المزمل: ١٤]. ثم يفرق الله تركيب أجزاء الجبال وينسفها نسفاً ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [سورة طه: ١٠٥]، فتنهذ الجبال بعدما تتشقق الأرض ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ [سورة مريم: ٩٠].

وتفتتت تفتيتاً دقيقاً فتبس بسا وتصبح كالدقيق ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ [سورة الواقعة: ٥]، فتصبح "كالعهن المنفوش فتنتشر كالصوف المنتشر ذو ألوان مختلفة فتتلاشى الجبال على اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة"^(١١٥). ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [سورة القارعة: ٥] فتتفرق كالغبار أو أدق "كالهباء الظاهر في شعاع الشمس الداخل من الكوة"^(١١٦)، ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ [سورة الواقعة: ٦] وتصبح غاية بالدقة بل تصبح كالسراب. ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [سورة النبأ: ٢٠]، "فالسراب هو

(١١٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ٢٠، ص ٣٤٩.

(١١٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٩، ص ١١٦.

توقف الحياة بأسرها في عالم الموجودات ومن ثم حركتها مرة أخرى. والنفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعاً كالحضور والارتحال وغير ذلك. وقد يعبر عنه قرآنياً بالناقور. والناقور يعني «الصور الذي ينقر أي ينفخ فيه الملك»^(١١٨). قال تعالى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي النُّافُورِ﴾ [سورة المدثر: ٨]، وهي كهيئة البوق^(١١٩).

وقد ورد في القرآن الكريم بالإضافة الى النفخة ألفاظ أخرى لها ذات الدلالة وهي كلها متعلقة بالصوت الشديد وما يلازمه ومنها:

١. الصيحة:

الصيحة: «الصيحة هي رفع

[١٠١]، [سورة النمل ٨٧]، [سورة يس ٥١]، [سورة الزمر ٦٨]، [سورة ق ٢٠]، [سورة الحاقة ١٣]، [سورة النبأ ١٨]، [سورة المدثر ٨].

(١١٨) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، ١٤١٤هـ.

(١١٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ١٠، ص ١٧٦.

الصوت»^(١٢٠)، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [سورة ق: ٤٢] والصيحة "صاعقة سماوية نازلة عليهم أمانتهم بصوتها وأحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبة حادث من الحوادث الكونية خارق للعادة أو جار عليها إلى ملك روحاني إذا كان هو في مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونية من الموت والحياة والرزق وغيرها منسوبة إلى الملائكة العاملة"^(١٢١). وتؤدي بهم الى الموت ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩]، فأخذتهم الصيحة السماوية وهي العذاب المحتوم فأهلكتهم وجعلتهم كغشاء السيل، وما يحمله السيل من يابس النبات والورق والعيدان البالية. فصاروا كالمتبقي في حضيرة الماشية من نباتات واشجار يابسة المنقطعة بالكسر

(١٢٠) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم - الدار الشامية، ٢٠٠٩.

(١٢١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٠، ص ٣١٦.

• الصورة القرآنية لانهيار الموجودات..... (الصباح)

والرض الذي يجمعه صاحب الحظيرة؛
فصاروا كيبس الشجر المتفتت إذا تحطم.
﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ
الْمُخْتَضِرِ ﴾ [سورة القمر: ٣١] ولقد

أخذ الله سبحانه على نفسه أن تموت

كل الأحياء ذات نفس فقال ﴿ كُلُّ
نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [سورة آل عمران:

١٨٥] (١٢٢)، حينئذ يعم السكون والحمدود
ولا حركة لها ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [سورة يس: ٢٩]،

فالصيحة عذاب استئصال تقضي عليهم
وتهلكهم وما لها من رجوع أو مهلة
﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ
فَوَاقٍ ﴾ [سورة ص: ١٥]، ويقال أن هذه

الصيحة هي صيحة الإحياء. فيقومون من
موتتهم ناظرين فيخرجون من الأجداث
أو يخرجون للمثول أمام الله سبحانه
﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمٌ
الْخُرُوجِ ﴾ [سورة ق: ٤٢]، فتشقق عنهم

الأرض سراعاً ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ
عَنْهُمْ سَرَاعًا ﴾ [سورة ق: ٤٤] أذلاء لما

(١٢٢) [سورة الأنبياء: ٣٥]، [سورة العنكبوت:

٥٧].

سيؤولون له ﴿ وَكُلُّ أُنُوتِهِ دَخِيرِينَ ﴾ [سورة
النمل: ٨٧]، فيلقون على "وجه الأرض
المستوية الخالية من النبات" (١٢٣) ﴿ فَإِذَا هُمْ
بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [سورة النازعات: ١٤].

٢. الصاخة:

الصاخة: «الصاخة صيحة تصخ
الأذن أي تطعنها فتصمها لشدتها؛
ومنه سميت القيامة الصاخة» (١٢٤).

قال تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ ﴾ [سورة
عبس: ٣٣] فإذا جاءت الصاخة فإن

المرء سيهرب من موالة أخيه ولا يكلمه
﴿ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [سورة عبس:

٣٤]، ﴿ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ﴾ (٣٥) وَصَحْبُهُ وَبَنِيهِ (٣٦)

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [سورة
عبس: ٣٥ - ٣٧].

٣. القارعة:

القارعة: «هي المصيبة تفرع الإنسان

(١٢٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد
محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)،
ج ٢٠، ص ١٨٦.

(١٢٤) لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١ هـ)،
دار صادر - بيروت، ١٤١٤ هـ، مادة
صخخ.

• البصائر

أ.د. أحمد الصفار

قرعاً كأنها تؤذنه بأشد من نفسه» (١٢٥).

﴿الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [سورة القارعة:

١ - ٣] وهي "كل هنة شديدة القرع.

وهي القيامة أيضاً" (١٢٦). والقارعة من

القرع وهو الضرب باعتماد شديد مما

يؤدي الى أن يكون الناس «كالجراد الذي

ينفرش ويركب بعضه بعضاً وهو غوغاء

الجراد» (١٢٧)، ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ

كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [سورة القارعة:

٤]، وستلاشى الجبال بمختلف ألوانها

وستصبح كالصوف المنفوش ﴿وَتَكُونُ

الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [سورة القارعة: ٥].

٤. الزجرة:

«الزجرة الصرفة عن الشيء

(١٢٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد

محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)،

ج ١١، ص ٣٦١.

(١٢٦) المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل

بن سيده المرسى (ت ٤٥٨ هـ)، ١٩٩٦،

ج ٤، ص ١٨٥.

(١٢٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد

محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)،

ج ٢٠، ص ٣٤٩.

بالمخافة» (١٢٨). وهي «صيحة» (١٢٩)، قال

تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [سورة

الصفافات ١٩].

٥. الراجفة والرادفة:

الراجفة: «صيحة عظيمة وفيها تردد

واضطراب كالرعد إذا تمخض» (١٣٠)،

﴿تَجَفُّفُ الرَّاجِفَةِ﴾ [سورة النازعات: ٦]

وتأتي بعدها الرادفة ﴿تَبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [سورة النازعات: ٧].

٦. النفخة الأولى ﴿نفخة الإمامة﴾:

جاء في القرآن الكريم إشارة الى ما

سيجري عندما ينفخ في الصور ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ

فِي الصُّورِ﴾ (١٣١) [سورة الكهف: ٩٩]،

وفيها يموت كل ذي حياة في السماوات

والأرض، فالموت إنما يلحق الأجساد

بانقطاع تعلق الأرواح بها. فيصعق كل

(١٢٨) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل

بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق

والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

(١٢٩) تفسير الصافي، الصافي في تفسير كلام الله

الوافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)،

مكتبة الصدر، طهران.

(١٣٠) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد

محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ).

(١٣١) [سورة الأنعام: ٧٣].

الصورة القرآنية لانهيار الموجودات..... (المصباح)

يستطيعون توصية - على أن الموت يعمهم جميعاً دفعة فلا يترك منهم أحداً يوصي إليه - ولا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلاً^(١٣٤). ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة يس: ٥٠] ففي هذه النفخة إماتة لجميع الأحياء. وهنا أود الإشارة الى أنه: بالإضافة لما سبق الى أن الإماتة هنا على ما بينه المفسرون تقع على الثقلين وهما الجن والإنس كما جاء في الآية الشريفة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦]. فإن هذه الآية لم تتكلم عن باقي الموجودات الكونية التي تكلمت عنها الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ﴾ [سورة القصص: ٨٨] والتي سنتكلم عنها في المرحلة ما بعد النفخة الثانية. فيتوضح لنا أن النفخة الأولى إنما هي لإماتة الثقلين والنفخة الثانية هي لإحيائهم. ويتم في النفختين معا ظواهر كونية تؤدي الى إزالة الحياة للكائنات الحية من على الأرض. وقد

(١٣٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٧، ص ٩٨.

من في السماوات والأرض فيهلكوا جميعاً، والصعق معناه «الصوت الشديد. ومنه الصاعقة، وهي الوقع الشديد من الرعد. ويقال إن الصعاق الصوت الشديد. ومنه قولهم: صعق، إذا مات، كأنه أصابته صاعقة»^(١٣٢)، «وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيراً»^(١٣٣) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الزمر: ٦٨]. وقد قدمنا للمشاهد التي تؤدي الى انعدام الحياة، نتيجة لتغير الأرض والسما. ففي مثل هذه الأوضاع والأحوال، تموت جميع الكائنات الحية فتحدث صيحة عظيمة: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [سورة يس: ٤٩] "تفاجئهم ولا تمهلهم أن يموتوا من فورهم فلا

(١٣٢) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥ هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (ت ٣٩٥)، ج ٣، ص ٢٨٥.

(١٣٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ)، دار الهداية، مادة صعق، ج ٢٦، ص ٢٥.

• البصائر

أ.د. أحمد الصفار

أشرنا لها في الفصول السابقة، وكذلك تغيير وجه الأرض وتسطيحها تماما بل وتغيير موقعها وغيرها من الظواهر وكلها وضعت تحت أشراط الساعة ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [سورة محمد: ١٨].

٧. أشراط الساعة:

والأشراط جمع الشرط بالتحريك وهو العلامة، وبذلك فقد بين القرآن الكريم علامات الساعة التي تخبر بوقوع يوم القيامة. وسأمر عليها - فقط - لاستكمال الموضوع، ولن أقف عندها كثيرا، ومنها^(١٣٥):

١. بعثة النبي ﷺ:

والكلام للمشركين ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [سورة محمد: ١٨].

٢. اندكاك سد يأجوج ومأجوج:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ

(١٣٥) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار احياء التراث العربي، بيروت.

رَبِّي حَقًّا ۝ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [سورة الكهف: ٩٨ - ٩٩].

٣. اتيان السماء بدخان ميين:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الدخان: ١٠ - ١١]، ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [سورة الدخان: ١٦].

٤. نزول المسيح عليه السلام:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧] ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلْسَاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: ٦١].

٥. إخراج دابة الأرض:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة النمل: ٨٢].

٦. مجيء بعض آيات الرب تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ

الصورة القرآنية لانهباء الموءوءاء (المصباح)

ءَأَمَنَّا مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِنَا خَيْرًا قُلْ
أَنظُرُوا إِنَّا مُنظَرُونَ ﴿١٥٨﴾ [سورة الأنعام:
١٥٨].

٧. مشاهء يوم القيامة:

وهناك مشاهء القيامة ومنها الءواءء الكونية الهائلة الاءى ساءق فى نفس قيام الساعة. وهى الاءى أسهبا فى الإشارة إليها فىما سبق وساءكم عن الجزء الآخر منها ما بين النفءة الاءىة والمعاء وهو الهلاك الاءام للكون كله ونظامه، والله العالم بالءقائق جميعها.

٨. النفءة الاءىة ﴿نفءة الإءاء﴾:

النفءة الاءىة هى الاءى آها فىها الأمواء، ءون النفءة الأولى الاءى آموء فىها الإءاء لكون ما ىآرب عليها من انقاء الأنساب، «واءبار انقاء الأنساب من الءواءب الاءىوة الاءى آءعو الإنسان إلى الاءىة الاءآماعىة الاءى آبآنى على آكون البىء، والمآآمع المنزلى ىساءقب الآعارف والآعاطف وأقسام الآعاون والآعاضء وسائر الأسباب الاءى آءوم بها العىشة الاءىوة وىوم القيامة ظرف جزء الأعمال وسقوط الأسباب الاءى منها

الأعمال فلا موآن فىه للأسباب الاءىوة الاءى منها الأنساب بلواءها وآواصها وآآارها» (١٣٦)، وأن الآساءل وآقل المىزان وآفآه إلى غير ذلك من آآار هى من آآار

النفءة الاءىة. ﴿فَإِذا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَا

أَنسَابَ بَينَهُم يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ﴿١٠١﴾

فَمَن نُّقِلَتْ مَوزِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

﴿١٠٢﴾ وَمَن خَفَّتْ مَوزِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ

خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ [سورة

المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]. ومن علاماء

إءاء الأمواء بالنفءة الاءىة أن ىآمعون

بعء سكون وموء، ﴿ونُفِخَ فِى الصُّورِ فَمَجَعْنَهُمْ

جَمْعًا ﴿٩٩﴾ [سورة الكهف: ٩٩] وكذلك

ىآشرون، وىآرى بىنهم آآاف وآسآراب

لفآرة مكآهم وىآصرون أنهم مكآوا

ىوما. فىآمعون والأرض مسآوىة لا

آبال فىها ولا وءىان ولا نبات، وفى هذا

الموقف المهول فإنهم جميعا ىآبعون ءاعى

الإآضار بكل آوف وآشوع ومن غير

أن ىرفعوا صوآا فىآآءآون همساء، فلا

(١٣٦) المىزان فى آفسىر القرآن، العلامة السىء
مآء آسىن الطباطبائى (آ ١٤٠١ هـ)،
آ ١٥، ص ٦٩.

شفاعة شفيع إلا من يأذن له الله بها: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۚ يَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۚ﴾ (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۚ ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۚ﴾ [سورة طه: ١٠٢ - ١١١].

وتجمل الآيات السابقة وكذلك آيات أخرى قد ورد ذكرها الى ما سيجري على الناس يوم الجزاء من حين يبعثون إلى أن يجزوا بأعمالهم من الإحضار ثم الحشر ثم تسطيح الأرض ثم أنهم يطيعون ويتبعون الداعي للحضور ثم تسقط الشفاعة حينئذ ثم يحاطون علما بحالهم وهي مقدمة للحساب والجزاء ثم سلطان الله وقوته عليهم ونفوذ حكمه فيهم وبالمقابل

ذلتهم وخيبتهم.

لقد ذكر القرآن الكريم النفخة وما يتعلق بها من صيحة ونقر وصنخ وزجر ورجف وقرع في آيات عديدة^(١٣٧) وهنا لا أريد أن أصنف تلك الآيات للنفخة الأولى أو أيها للنفخة الثانية فقد تناولها المفسرون وكتّاب آخرون^(١٣٨)، وما أريد أن ألفت الانتباه إليه هو نقطة الانتقال بين نهاية النفخة الثانية وهي إحياء الأموات وانتهاء الكون المتمثل في قوله سبحانه وتعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. ولأصطلح عليها ما قبل المعاد أو نفخة الهلاك.

(١٣٧) الزمر ٦٨، النمل ٨٧، الحاقة ١٣ - ١٤، المؤمنون ١٠١، الكهف ٩٩، طه ١٠٢، النبأ ١٨، الأنعام ٧٣، ق ٢٠، ق ٤٢، يس ٢٩، يس ٤٩، يس ٥١، يس ٥٣، ص ١٥، المدثر ٨ - ٩، عبس ٤٣ - ٤٤، الصافات ١٩، النازعات ٦، النازعات ١٣، القارعة ١ - ٣، القمر ٣١.

(١٣٨) دروس في العقيدة الإسلامية، محمد تقي اليزدي، دار الحق، بيروت. الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، جعفر السبحاني، ج ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، فصل ١٦، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

الصورة القرآنية لانهيار الموجودات..... (المصباح)

٩. ما قبل المعاد ﴿نفخة الهلاك﴾:

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: ١٣ - ١٦]. لو تتبعنا تسلسل الآيات الشريفة نرى أن بعد تلك النفخة الواحدة ستدك الأرض بما فيها الجبال وحينئذ يصير يوم القيامة، ثم يلحق باندكك الأرض انشقاق السماء فتصبح واهية ضعيفة. إن "في توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضي الأمر ونفوذ القدرة فلا وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخة، وأنها النفخة الثانية التي تحيي الموتى. وقوله تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ فالدك أشد الدق وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتها بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية. وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة" (١٣٩).

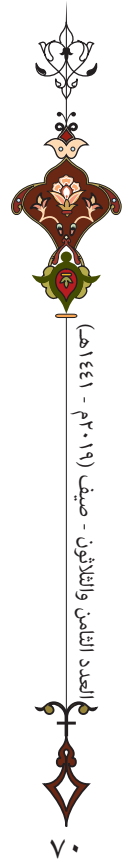
(١٣٩) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)،

وإحاقا بهذه الصورة هناك مرحلة أخيرة، وهي مرحلة الهلاك لكل شيء بعد نفخة الإحياء. وفي هذه المرحلة لا يبقى فيها حياة للكائنات الحية ولا وجود لشيء، فكل شيء باطل في ذاته ولا وجود له وهو معدوم. وفي هذه النفخة يعم الموت كل شيء من الأحياء وغيرها «وكل شيء فان بائد الا ذاته» (١٤٠). أي أن «كل شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله عليه» (١٤١) لقوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص: ٨٨]، وقد اختلف المفسرون في تفسير ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، فمنهم "من فسر الهلاك بالعدم، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه عز وجل، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء،

ج ١٩، ص ٣٩٧.

(١٤٠) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج ٤، ص ٢٦٩.

(١٤١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٦، ص ٩٠.



وإن كانت أجزاؤه باقية، فإنه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه، بل خروجه عن كونه منتفعاً به، ومنهم من قال: معنى كونه هالكاً كونه قابلاً للهلاك في ذاته، فإن كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلاً للعدم فكان قابلاً للهلاك، فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً إلى هذا الوجه" (١٤٢).

بالتأكيد أن أيا كان من تلك الآراء في هلاك الأشياء، إما بتفريق أجزائها أو عدم الانتفاع بها أو عدمها وإبادتها فكلها تدور حول عدم وجودها على الصورة قبل الأخيرة، وبالفعل فإنه سوف يتغير كل شيء لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٨]، وغيرها من الصور الكونية التي مررنا بها سابقاً ومنها انشقاق السماء وانشقاق القمر وتكوين الشمس واجتماعها بالقمر ثم الصوت الشديد وغيرها كثير. أقول

(١٤٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث - القاهرة، ج ٢٥، ص ٢٣.

بالمجمل لم يعد هناك النظام الكوني المتناسق المنقاد الذي كان معمولاً به بل سيتغير كل شيء. فالهلاك: "بطلان الشيء من العالم وعدمه رأساً" (١٤٣)، كما وأن «هلاك الأشياء بطلان وجودها الابتدائي وخلو النشأة الأولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده» (١٤٤)، ويتأكد لنا أن الأشياء كلها إلى زوال ماعدا الواجب الوجود الخالق للأشياء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. وزوالها هو زوال بنيتها التي كانت عليها. وعدمها هو غياب مظهرها وعينها، فهلاكها هو انتهاء صورتها التي هي عليها. لعلنا نتساءل كيف يكون ذلك؟.

وهنا تبرز حقيقة بينة واضحة وهي توقف حركة كل شيء. ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بسكون الحركة الجوهرية، وهذا

(١٤٣) المفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم - الدار الشامية، ٢٠٠٩، مادة هلك.

(١٤٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج ١٦، ص ٩٢.

الصورة القرآنية لانتهيار الموجودات..... (المصباح)

الخاتمة:

لقد مررنا بعرض الصّور التي بينها القرآن الكريم آيات يوم القيامة وما قبلها بحدوث النفختين الأولى والثانية. وأتمناها بما عرضته الآيتين الكريمتين ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۚ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۚ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ ۝١٥ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۚ﴾ [سورة الحاقة: ١٣ - ١٦]، و ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾ [سورة القصص: ٨٨]. اللتان تبينان تلاشي الموجودات. وافترضنا أن تلاشيها هو ليس عدمها بل بقاء أجزاءها، وإنها يكون ذلك بسكون حركة مكونات الموجودات والمتمثلة بجوهر المادة، والمعرف علمياً بأصغر مكونات المواد وهي الذرة، فسكون الموجودات يتم بسكون حركة مكونات الذرة. وأنها أي مكونات الذرة ستستجيب حتماً للأمر الإلهي مطيعة خاشعة خاضعة مدركة عالمة كما مر توضيح ذلك. وكنا قد فصلنا في الفصول السابقة مقدمات تمهيدية لتوضيح الغاية من بحثنا هذا.

يعني توقف حركة كل مكونات الذرة لأي ممكن الوجود. والذرة هي الجسم المكون الأصغر في الكون، وهذا يعني أيضاً انتهاء كل شيء محسوس وملمس؛ فلا جبال ولا تراب ولا سماء ولا نجوم ولا هواء ولا أي شيء. فقط تبقى مكونات وأجزاء الذرة وهي الإلكترونات ومكونات النواة، والله وحده العالم. ويرافق ذلك تكون طاقة هائلة شديدة تفجر الكون كله ولا يمكن تصورها أو تخيل عظمتها وشدتها. ولعل بوقوع الضرب المتتابع الذي سماه القرآن الكريم بالبطش وهو "الأخذ بشدة، وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع" (١٤٥) ولعظمتها وقوتها سماها بالبطشة الكبرى ﴿يَوْمَ يَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى﴾ [سورة الدخان: ١٦]، تلك البطشة الكبرى توحى وترسم صورة الأحوال لما سيجري-والله العالم- في لحظات انتهاء النظام الكوني.

(١٤٥) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج ٢٧، ص ٦٥٨.

